www.liilas.com ريما

روايات أحلام

لا تغفري لي

حاولت دولوريس ألا تصغي إلى الصوت الخفي في أعماقها الذي كان يقول لها إنه الرجل الوحيد الذي تريده، وستظل تريده حتى يوم مماتها. وقالت بتصميم عنيف:

- لن تأخذ طفلي ... إنه لي!

- لن تستطيعي منعي!

إنها تعرف هذا في قرارة نفسها. بعد سنة من فرارها منه أصبحت تعرف الكثير عن زوجها اليوناني القاسي القلب، تعرف لماذا تزوجها، وتعرف أنه خدعها منذ بداية الزواج...

ولم يكن هذا صعباً عليه فقد كانت فتاة بريئة واقعة في الحب.

ماذا تفعل الآن؟ هل عندها خيار إلا العودة مع طفلها؟ هذا إذا كان رامون ما زال يريدها، ويبدو هذا مستحيلاً بوجود يانيس قربه...

لبنان ٢٠٠٠ ل.ل.	الإمارات ٦ د.	مصر ٤ ج.	ليبيا
سوريا ٥٠ ل.س.	قطر ٦٠٠ ر.	المغرب ١٥ د.	اليمن
الأردن ١ د.	البحرين ٦٠٠ ف.	تونس ١.٥ د.	السودان
الكويت ٥٠٠ ف.	السعودية ١٠ ر.	عمان ٦٠٠ ب.	العراق

روايات أحلام

لا تغفري لي

ريما www.liilas.com

١ ـ أريد ابني

بدت الغيوم من خلال النافذة، كثيفةً قاتمة، منخفضة تكاد تلامس سطوح المنازل، وكان المطر ينهمر دون انقطاع. . وحتى في الداخل كان الجو مليئاً بالرطوبة فكأنما غشاء من الضباب يلتصق بكل شيء.

أقفلت دولوريس الستائر عبر نوافذ غرفة الجلوس. . فمع أن الوقت لم يتجاوز بعد الثانية بعد الظهر، إلا أنها لم تعد تستطيع تحمّل جوّ الاكتئاب في الخارج أكثر من هذا. . . فالجو أحزنها، وركعت على ركبتيها لتشعل مدفأة الغاز. كانت آلة الاشتعال في المدفأة معطلة، وعيدان الثقاب قصيرة جداً. . لذا لجأت إلى لفافة ورقية، أخذت تنفخ من خلالها بقوة أوصلت النار إلى الغاز الذي أخذ يشتعل محدثاً فرقعة واضحة ثم أسرعت إلى الردهة الصغيرة في الطابق الأول لتسقط قطع النقود المعدنية اللازمة في عداد الغاز. . خلال عودتها إلى غرفة الجلوس، توقفت لتنظر إلى صورتها في المرآة متأملة نفسها.

لم يدهشها أنها لم تكد تتعرف إلى صورتها، كانت وكأنها تنظر إلى امرأة غريبة. . لم يكن هناك الكثير من دولوريس القديمة فلقد بدت وجنتاها مجوّفتين، وكذلك البشرة، كأنما شُدّت على طبل فوق العظام، بل إن عينيها بدتا ضخمتين غائرتين، وقد برز أنفها المستقيم وكأنه المنقار، ظلت عيناها واسعتين تحيط بهما تلك الأهداب السوداء، إلا أن ذلك اللون الرمادي الصافي اللامع لم يكن فيه أثر

للزرقة أو الخضرة، فلقد اسودّ وخبا حتى كاد أن يشابه تلك الغيوم السوداء الزاخرة بالمطر.

شدت ثوبها إلى جسدها، فبدا أسفها واضحاً وهي تهز رأسها: نحيل جداً، كما قالت مأمورة الصحة، وعليها أن تأكل أكثر، ولقد فعلت فوق ما تستطيع، ولكن، يبدو أن الطعام فقد تأثيره. لطالما كانت نحيلة، ولكنها الآن تبدو كالعصا، ذراعين وساقين... وبالشكل الذي تبرز فيه عظام وركيها، بدت وكأنها هيكل عظمي.. لا تكسوه ذرة من دهن أو حتى من لحم أيضاً.

غير أنها كانت حزينة من أجل شعرها أكثر من أي شيء آخر.. فلطالما كانت تعتبره جمالها الوحيد.. وإن لم يكن ما تبقى منه بذلك السوء! فهي يوماً كانت شابة جميلة المظهر.. لكن شعرها كان يسترسل إلى ما تحت كتفيها في ستارة حريرية ناعمة من الذهب الوردي.. وكانت فخورة به.. لكنها لم تعد كذلك. كانت الإنارة في الردهة ضعيفة، تنبعث من مصباح ضعيف فأخفى الكثير، إلا لون شعرها الذي عانى الكثير.. فاللون الذهبي الوردي أصبح الآن لونين لا اسم لهما، فلا أشقر ولا بني. لوناً ميتاً، وقد استرسل هزيلاً، ودهنياً مهما حاولت غسله.

احتجّت بصوت مرتفع لتخرج نفسها من اكتئابها: «مكتئب لا حياة فيه.. لكن، هناك نقطة براقة في حياتك، فاهتمي بها يا فتاة» وتصاعد بكاء حاد من غرفة النوم فأكملت «وهذه النقطة البراقة تظن أنها نامت ما يكفي!». لقد كانت غالباً ما تكتشف أنها باتت تكلم نفسها هذه الأيام.. وهذه علامة سيئة.. أسرعت إلى حيث ابنها البالغ ثلاثة أشهر، يحتج وقد طال انتظاره للطعام.

ما إن التقطته من سريره، حتى توقف صراخه وابتسم لها ابتسامة عريضة، فقالت:

ـ هذه ابتسامة حقيقية.. فأنت لم تحوِل عينيك هذه المرة.. وبالمناسبة أيها الشاب، لقد ازددت وزناً.. ولكن إياك أن تكبر على ثوب النوم هذا قبل أسبوعين على الأقل.. أفهمت يا حبيبي؟

وبينما، وقد نفد صبره، راح يكوِّر شفتيه استعداداً لصياح جديد، تمتمت وهي تنحني فوق شعره الأسود الناعم، تلتقط سلة زينته:

ـ علينا أن نريحك أولاً.

تحسست مؤخرته وقد لُفّت جيداً، وضحكت تحتضنه:

ـ سأنظفك وأدعك تلعب قليلاً قرب المدفأة، حرّاً من كل هذه الألبسة البلاستيكية المزعجة، قبل أن تصل إلى عماد حياتك.

طيلة انهماكها بالطفل، مستبدلة له ثيابه، وعاملةً على تنظيفه ومسح وجهه ويديه بالإسفنجة الناعمة، جعلت تهمهم بأشياء غير مفهومة وهي تراقب وجهه بعينيها الكبيرتين المتلهفتين، تبحث فيه عن شبه فكرت مرة أو مرتين أنها لاحظته فيه. وفجأة لاحظت.. وبشكل سريع، عينين ضبابيتين تميلان إلى زرقة قاتمة حتى تكادا أن تكونا أرجوانيتين، كانتا تنظران إليها وهي تمسح وجهه بمنشفة، وتقارب حاجبين أسودين دقيقين في تقطيبة.. لقد عرفت طعم الجنة، وإنما لوقت قصير، أُخرجت بعدها منها.. ثم، وبعد أن بات ألمها لخسارتها أكبر من أن تحتمله، أعيد إليها هذا الجزء الصغير من السعادة السماوية.. وتلاشى الشبه بسرعة كما جاء.. وبتنهيدة خفيفة، لفّت دولوريس الطفل ببطانية، ثم حملته إلى غرفة الجلوس، حيث بسطت البطانية على الأرض ووضعته فوقها.

عادت الذكرى تعذبها، وعادت معها إلى الجزيرة تحت الشمس الحارقة والسماء الزرقاء.. تتعرض للشمس على الرمال شبه الفضية، من على الشاطىء نصف قمريّ الشكل، تنظر إلى الڤيلا البعيدة فوقها عند قمة الصخور، وإلى الجدران البيضاء، إلى الشرفة المقوّسة.

www.liilas.com ريما

حين شاهدت المنزل لأول مرة، بدا لها وكأنه جزء من الفردوس. وأنها لا يمكن إلا أن تنعم بالسعادة فيه.. ولكن..

وإذ «بطقطقة» مزلاج الباب تعيدها إلى حاضرها، فالشمس والبحر، ورائحة الورد والصعتر، كلها تلاشت ليطرق أذنيها صوت صاحبة المنزل، عند الباب، تقول لشخصٍ ما:

ـ لست أدري إذا كان عليّ أن أفعل سيدي.. فالسيدة ستيفن قد لا ترغب.. أووه..

تعالت «طقطقة» قفل الباب ثانية، وارتفع صوت وقع أقدام خفيف في الردهة، فأحست دولوريس بارتجاف بسيط مع انفتاح باب غرفة الجلوس، لصوتٍ تتذكره جيداً.. وجيداً جداً.. يناديها باسمها:

ـ دولوريس!

للحظة تسمّرت في مكانها، عاجزةً عن الحركة، وقد شلّها ما يشبه الرعب، وفغرت فاها، جمدت الكلمات على شفتيها، إلا صوت هو مزيج من الألم والخوف وكأنما هو صوت حيوان. وانخفضت عيناها إلى طفلها المستلقي على البساط، وكأنما رؤيته كسرت الطلسم الذي سمرها وجمّدها، فرمت بنفسها فجأة عن المقعد وحملته، تحتضنه إلى صدرها.. مما أذعر الطفل فأخذ يصرخ.

تقدم ذلك الرجل نحوها، تاركاً بحذائه الرطب، آثاراً على الأرض النظيفة والمصقولة اللامعة:

ـ أنت تؤلمينه دولوريس.

أخيراً وجدت صوتها، وهزت رأسها بعنف:

ـ لا.. لا.. لا! اذهب من هنا.. عد إلى حيث جئت.. أنت غير مرغوب فيه هنا!

حاولت أن لا تصغي إلى الصوت الخفي في أعماقها، والذي كان يقول لها إنها «تريده» وإنها لم ترغب يوماً في رجل آخر.. وإنها،

ومهما كان تصرفه معها سيئاً، فهي لا تزال تريده، وستستمر تريده إلى يوم مماتها.. وقاومت الصوت ذاك بعنف إلى أن توقف.. بينما اشتدت ذراعاها أكثر حول ابنها، وأخذت عيناها تتحركان من جانب إلى آخر كمثل حيوان عالق في فخ.

ـ لن تأخذه.. إنه لي!

خرج صوتها متحشرجاً، وهستيرياً، ولكن، خلف الحشرجة تلك والهستيريا كان هناك تصميم عنيف.

ـ دولوريس!

كان الصوت المشابه لفرقعة السوط، كالماء البارد على وجهها، فانخفضت ترتطم بالكرسي وتجلس، وقد آلمها سقوطها المفاجيء، ولكنها كانت ممتنة لجلوسها، فقد صعقتها المفاجأة لتتحوّل إلى حجر جامد بارد، تلك البرودة التي أخذت تنتشر في أوصالها، حتى إنها باتت عاجزة عن التفكير بطريقة سوية.

تابع بخشونة:

ـ انظري إليّ أيتها البلهاء الصغيرة! أنا لن أنتزع الطفل منك، فتوقفي عن النظر إليّ وكأنني غريب جاء ليسلبك.. أنا زوجك، جئت لأرى ابني، وأتكلم بتعقل حول المستقبل مع زوجتي!

وببطء، أحست دولوريس أن الرعب أخذ يتلاشى، فمهما كانت مساوئه، فرامون ماركوراس، لا يميل أبداً إلى العنف الجسدي.. رامون.. وجُمد تفكيرها عند الاسم.. إنه اسم غير عادي لرجل يوناني.. وليس اسماً يونانياً.. إنه نتيجة نزوة من أمه الأميركية، وتحريف لاسم المنزل الذي كانت تعيش فيه «رامونا».. كما أنه لا يبدو يونانياً، فهو فارع الطويل، ممشوق القوام، ساقاه طويلتان جداً. وبالنظر إلى وجهه جانبياً ترى عظام خده المرتفع وأنفه المقوس، وعينيه الغائرتين السوداوين، والفم الدقيق، الذي يمكنه التحول إلى

www.liilas.com ريما

ابتسامة، أو يستقيم في خط قاسٍ لا يلين. وبذقنه الطويلة الثابتة، كان يشبه الهنود الأميركيين.. لكنه، من الداخل، يوناني بالكامل، وحتى العظام.

ومع ذلك، وحتى لو تحول شريراً، فليس لديها ما تخافه. فلقد ترك باب غرفة الجلوس مفتوحاً، وصاحبة المنزل تعيش في أسفل الطابق الأرضي، نعم! صيحة واحدة ستأتي بالجميع راكضاً لنجدتها.

ـ أي مستقبل؟

لم تكن قد استعادت كامل سيطرتها على نفسها، فصوتها لا يزال مرتعشاً.. لكن، ما إن يتوقف قلبها عن الضرب وكأنه المطرقة، فستسيطر على نفسها تماماً:

ـ مستقبلنا؟ ليس لنا مستقبل.. لقد قتلته منذ سنة.. مستقبلي؟ أوه.. لا! فهذا لا شأن لك فيه.. إذن، لا شيء نتكلم عنه..

ـ مستقبل ابني إذن.

كانت عينا رامون السوداوان تكادان أن تختفيا وراء أهداب كثيفة، وفمه كان خطاً مستقيماً مألوفاً لديها.. إنما عرق صغير كان ينبض عند زاوية فمه.. إنها دلالة سيئة.. فهي تعني أنه بدأ يفقد أعصابه.. وبروح دفاعية اشتد لذع دولوريس له:

ـ إنه ابني.. أوه.. أنا لا أنكر أبوتك له، لكن عدا هذا.. لا شيء..

قاطعها مذكراً:

ـ لقد وضعت اسمي على شهادة ميلاده.. فماذا تعنين إذن بإطلاق اسم السيدة ستيڤن على نفسك؟ لو أردت أن تكوني إنكليزية حقاً فاسمك يجب أن يكون السيدة ماركوراس!

رفعت ذقنها متحدية، تكاد تستمتع بالمعركة:

ـ أستطيع تسمية نفسي ما أشاء.. واخترت أن أكون السيدة

ستيڤن.. فأنا تنازلت عن كوني زوجتك، ومسجلة في السجلات الرسمية كعائلة لأم وحيدة..

هدهدت الطفل لتسكن صراخه:

ـ ابني جائع.. ويريد وجبته، وسأكون ممتنة لو ترحل، فكلانا لا نرحّب بمن يراقبنا.

ـ إذن أطعميه، ما بالك يا امرأة.. لم كل هذا الاحتشام؟ نحن متزوجان، وعشت معي لمدة سنة، ولا يوجد ذرة من جسدك لا أعرفها!

جلست دولوريس مع طفلها، لكن قبل أن تفك أزرار صدر ثوبها ألقت بوشاح فوق كتفيها كستارة، وكادت تقفز من جلدها لضحكته الوقحة، فتمتمت:

ـ أتمنى لو تذهب من هنا، وفي الحال.

فأشار إلى الصبي الراضع بنهم:

ـ أرفض.. لقد سميته «بيتروس».

لم يكن ما قاله على شيء من الخطورة، وتستطيع الرد على تلميحه:

ـ لن يحبني لهذا الاسم، لذا أناديه بيتر.. ولكن كيف عثرت عليّ؟!

تجاوزها رامون ليجلس على مقعد قبالتها:

ـ أنا لم أفقد أثرك أبداً يا عزيزتي. أتريدين ملخصاً لكل ما فعلته منذ تركت المنزل؟ أستطيع سرده لك. لقد عدت مباشرة إلى انكلترا، ولمدة شهر عشت مع عمتك في مدينة «بدفورد».. وحين ماتت تركت المكان وجئت إلى لندن، وعدت للعمل في المؤسسة القديمة التي كنت تعملين فيها، وعشت في غرفة مؤجرة...

رفعت ذقنها تنظر إليه بازدراء:

ـ وهل وظفت شخصاً ليراقبني؟

ريما www.liilas.com

www.liilas.com ريما

هزّ رأسه:

ـ ليس بالضرورة. فقد استثمرت بعض المال في المؤسسة..

قالت بمرارة تقاطعه:

ـ .. وبالمقابل.. أعطاك أحدهم هذه المعلومات عني.

ابتسم ساخراً:

ـ عن كل الموظفين في الواقع.

ـ ولماذا تأخرت إذن؟ لماذا انتظرت حتى الآن؟

قست عينا رامون:

ـ لقد تركت العمل قبل أن تتاح لي فرصة المجيء إلى لندن.. لقد اختفيتِ، وكان علي أن أكون لطيفاً جداً مع سكرتيرة خاصة، قبل أن أحصل منها على المعلومات التي أحتاجها. كانت تحب القليل من القال والقيل الممتع. خاصة حول زملائها، وأنت عزيزتي، كنت موضوع الكثير من التخمين. ولم تكن تعرف أنني زوجك بالطبع، فأنت لم تخبري أحداً بزواجك.. أليس كذلك؟ والسيدة لم تكن واثقة أبداً من أنك متزوجة، لكنها كانت واثقة من شيء واحد.. إنك سترزقين بطفل.. قالت إن هذا كان واضحاً لها عندما عدت إلى العمل في المؤسسة.

المؤسسة.. تبلّلت عينا دولوريس.. أول من وظفها، بل الوحيدة.. تنتج كراسات للسفر، وقد انضمت إليهم كمصوّرة، رأساً من المدرسة، وعملت معهم بسعادة لأربع سنوات، إلى أن أرسلت في مهمة إلى «كورفو» لتصور سلسلة من الڤيلات السياحية بُنيت حديثاً، ومن النوع الفخم.. شركة سياحة جديدة أنشئت في اليونان، كما شُرح الأمر لها، شركة أسعارها أغلى ما في السوق السياحي، ڤيلات فاخرة، مع الخدم، والطهاة، وحوض للسباحة خاص، وخلوة كاملة. من سيارة مؤجرة، إلى قارب بخاري إذا تطلّب السائح هذا.. وكانت

مهمتها تصوير هذه الڤيلات.

كانت هذه المهمة مصدر فخرها.. ففي السابق أهم مهماتها كانت تصوير المنازل القديمة الفخمة من الداخل للكتيّبات السياحية.. وبينما كانت دولوريس مستغرقة في عملها المجهد في كورفو.. التقت رامون.

لوت فمها بابتسامة صغيرة وهي تتذكر لقاءهما. كانت قد أنهت التصوير الداخلي لڤيلا محددة، وركزت بعض المصابيح الكاشفة والمنصات في إحدى غرف النوم، حين دخل ليتعثر بمصباح، فيكسر زجاجه ويقول لها بأن تسرع.. لم تكن تعرف من هو، لذا لم تكن مؤدبة معه.. كيف لها أن تعرف أن شركة ڤيلات السياحة له، لم يذكر لها أحد اسمه، ولم يظهر عليه هذا وهو في بنطلون جينز باهت اللون، و«تي شيرت».

صاحت به غاضبة لتحطيمه معداتها.. وأعطته رأيها بما رأته من رداءة وسائل النقل العامة على الجزيرة.. وهذا ما لا يقبله أحد.. فعرض عليها سيارة، لكنها كادت تقطع رأسه، وقالت له غاضبة إنها لا تعرف القيادة، ثم اقترحت عليه أن يرحل عن المكان قبل أن يتسبب بالمزيد من الأضرار! وكانت بداية عاصفة لرومانس عطلة عاصف.

وتوتر فمها، إذ كان من الأفضل لها كثيراً لو تركت الأمر عند هذه النقطة.. مجرد رومانس عطلة.. شيء ما ستتذكره بحنين حين تعود إلى بلادها، دعوات عشاء في مطاعم في الهواء الطلق، معظمها يسمى بأسماء معاصر الزيتون، والزيتون كثير في كورفو.. رحلات المركب أوصلتها إلى أمكنةٍ حيث المياه صافية لدرجة أنها ترى صخور البحر تحتها.. وأحبته، رامية الحذر في مهب الريح، وتزوجته حال أن طلبها للزواج.

كان صادقاً تماماً معها.. أو هذا ما خيل إليها.. أخبرها عن

زواجه الأول، وأنه أرمل، وله ابنة شابة، وكانت «كاترينا» في الخامسة عشرة.. وقال لها كذلك، إنه ليس ثرياً جداً بل مرتاح مالياً، وإنها لن ينقصها شيء تريده.. وإن كل ماله محجوز في شركة الڤيلات، وفي الڤيلات الأخرى التي يخطط لها ما إن تُظهر الڤيلات في كورڤو وعداً بالمكاسب.

بعد تلك الفترة الهادئة التي أمضياها في أثينا، أمضيا أسبوعاً آخر يتجولان في آثارها.. في أماكن كثيرة لم تسمع دولوريس بها من قبل، ولم تتذكر الكثير منها فيما بعد.. فلشدّ ما كانت مسحورة بالسعادة لم تلقِ بالاً إلى حيث تذهب أو لما ترى، وعادا إلى منزل رامون في كورڤو، المسمى «ديمونا» وعلى رأس صخري داخل في البحر على بضع أميال شمالي بلدة «باليوكا ستريتسا».. وهناك بدأ الخلاف.

اسودت عيناها بالذكريات المؤلمة. وأحست بالدموع تقف خلف مآقيها، فأغمضت عينيها بشدة.. إنها لا تزال تحب رامون، رغم أنها تعرف الآن أنه لا يستحق حبها.. لكن هذا لا يعني إطلاقاً أن تلين له. وأصدرت صوتاً منخفضاً ساخراً أشبه بالشخير.

ـ إذن.. بعد أن فقدت أثري مرة أخرى، ماذا فعلت؟

ضحك رامون برقّة، كما كان يضحك في الماضي ليمازحها:

ـ تلك السكرتيرة، كما قلت، كان ينقصها وقائع محددة. لذا فكل ما حصلت عليه منها في ذلك العشاء الفاخر، كان واقع أنك كنت سترزقين بطفل.. لكنكم، أنتم الإنكليز، دقيقون في مسائل كالولادة، والموت، والزواج.. إذ يجب إكمال كل الوثائق لتُجمع في مكان واحد، مفتوح لأي استفسار.. وهذا أمر مرتّب جداً.. وخاطرت على أساس أنك لن تعطي معلومات مزيفة في وثيقة رسمية.. فطلبت من مؤسسة محاماة أن تتفحّص السجلات.

شهقت غاضبة، فهزّ رأسه مكملاً:

ـ لم يكونوا دقيقين في ما يفعلون.. قلت لهم إنها مسألة إرث، عندها زودوني بنسخة عن شهادة ميلاد الطفل مع اسم غير عادي «بيتروس ماركوراس»، وتذكروا أين أخذته أمه بعد مغادرتها المستشفى.. لكن وأنت تحملين لي مشاعر الكره، لماذا أطلقت عليه اسماً يونانياً؟

أنهى الطفل رضاعته، أجلسته دولوريس على ركبتها تدعك له ظهره.. فتجشأ بارتياح، وأخّرت الرد على السؤال وهي تمسح قطرات الحليب عن فمه الصغير.

ـ لقد سميته بيتر.. بيتر ستيڤن.. وفيما بعد، حين يصبح بالسن الذي يستطيع فيه الفهم سأشرح له كل شيء وسيكون بإمكانه أن يقرر بنفسه أي اسم يستخدم.

ـ كريمة الأخلاق، حتى ولو أنك لم تردي على سؤالي.. على أي حال هناك وقت كاف للحديث عن هذا فيما بعد.. متى انتهائك من التحضير للرحيل؟

هل كانت تنتظر مثل هذا السؤال؟

إنها لا تدري.. ولكنها فكرت خارج عقلها أنها كانت تنتظره.. ولم يصدمها. وعندما كانت تدخل ذراع بيتر الصغيرة في كم ثوبه، سمعت نفسها ببرود وهدوء تقول:

ـ إنه سؤال سخيف، وأنت تعرف هذا. فليس لدي النية بأن أذهب إلى أي مكان.. بل سأبقى هنا.. فهذا هو منزلي الآن.. لي، ولبيتر.

رد بعدم اكتراث:

ـ كما تشائين.

ولكنها لن تدع تعبير وجهه المتجهم يرهبها.. يجب أن تجبره على أن يدرك أنها لم تعد عبدةً له، مخلوقاً أدنى منه، لمجرد أنها امرأة.. يجب أن يفهم أنها قادرة على التفكير، وتدبير أمورها بنفسها.

وهكذا ردّت موافقةً بثبات:

ـ كما أشاء تماماً.

وانتظرت الهجوم.. فرامون لن يأخذ الأمر ببساطة وهذه الشدة في معاملته لها بدت عليه في الأشهر الأخيرة مما سمّته دولوريس بغلطة زواجهما. ولكنه لن يرهبها بعد الآن.. ومع أن قلبها كان يرتجف خوفاً فإنها ضبطت انفعالها ولم تسمح للاضطراب أن أن يظهر عليها.

ردّ وكأنه يناقش اقتراحاً تجارياً:

ـ إنه قرارك. لكن الصبي، ابني سيأتي معي.. وأظن أن هناك أمراً آخر يجب أن تأخذيه بعين الاعتبار وهو أنه ليس لدي النية أن أتزوج مجدداً.. فزوجتان تكفيان لأي رجل.. لذا لن يكون هناك طلاق لك.

صدمها هذا كضربة مطرقة على الرأس. وبدأ صوتها يرتجف مرة أخرى وهي تتحداه:

ـ لا.. لا يمكنك أخذ ابني! أنا أمه...

ـ لا.. أهذا كل ما تستطيعين قوله؟ لكنني لا أظن أن لديك الخيار دولوريس.. إذا كنت ترغبين في البقاء معه، سآخذه، ولا تخطئي في هذا أبداً، وبالقوة إذا لزم الأمر. وأستطيع إيصاله إلى اليونان قبل أن تتمكني من استصدار أمر محكمة لمنعي.. وإذا كنت تفكرين بالرسميات، فإنني لن أفعل شيئاً غير قانوني. فلدي صديق في السفارة، يقف على استعداد مع كل الوثائق اللازمة.. وقد يكون بيتر مولوداً في انكلترا، ومن أم إنكليزية، لكنه يوناني الجنسية.. وبالمناسبة شكراً لك على صدقك في المعلومات التي كتبتها في وثيقة ميلاده. لقد سهلت عليّ الأمور كثيراً.

ـ لقد تزوجتني لتنجب ولداً.. أليس كذلك؟ أي امرأة كانت تفي بالغرض شريطة أن تمنحك ابناً..!

وأقفلت فمها، فالماضي مضى.. ولا داعي لتحريك أي شيء مرة

أخرى.. مع أن بإمكانها أن تقول له بالضبط لماذا تزوجها. لقد أمضت ردحاً طويلاً من الزمن كي تجمع خيوط حقيقة العلاقة بين سكان الڤيلا الآخرين.. ولكن، لماذا تقول له إنها اكتشفت كل الداخل والخارج لكل شيء، فلتكن هذه مفاجأة له.

هزت رأسها.. فما تعرفه قد يفيدها الآن.. لم تعد فتاة سخيفة سريعة التأثر كما كانت. صارت ترى رامون الآن على حقيقته مخلوقاً بارد القلب، متآمراً، علماً أنه خدعها منذ البداية.. لكنها لم تكن صعبة الخداع.. ففتاة واقعة في الحب ليس من الصعب خداعها!

قاطع رامون أفكارها:

ـ إذن.. هل أنت قادمة معي دولوريس، أم يجب أن أستأجر مربية لتساعدني في خدمة بيتر..؟

إنه حقود وعنيد، وبهدوء وقسوة.. فلا يهمه أن يجرح أو يؤلم أياً كان لكي يأخذ ابنه.. يظن نفسه يملك كل الأوراق. لكنه، وبطريقة ما أحمق.. وتعترف وهي تحاول أن تكون منصفة أنه قادر على أن يعطي «بيتر» من الأشياء الجيدة في الحياة أكثر منها بكثير.. هي ذاتها لا تهتم كثيراً بالمال.. فهي لم تنفق شيئاً دونما حاجة، لذا حين حلت الكارثة، كان لها ما يكفيها، والإرث الصغير من عمتها في «بدفورد» كان يعني لها أن عليها أن لا تقلق إن لم تستطع العمل وأن تطمئن لفترة طويلة، أو على الأقل إلى أن يبدأ بيتر دراسته..

سخرت منه:

ـ تستأجر مربية؟ ولكن ذلك النوع من المربيات الذي تحتاج إليه قد أصبح غير مألوف منذ زمن بعيد.

رفع حاجبيه متعجباً، فأكملت منتصرة:

ـ المربية المرضّعة من الصعب وجودها هذه الأيام... وليس هناك من فائدة من التلويح بزجاجة رضاعة أمامه.. فلقد جربت هذا

ولم يتقبلها!

قال ببرود:

ـ يمكن تدبير أمر كهذا متى وصلنا إلى البلاد.. فبعض الوسائل القديمة لا زالت..

ـ إنها ستكون رحلة غير مريحة إطلاقاً.. ثم إنني لن أسمح بهذا.

جعلت دولوريس هذا يبدو تحدّياً، كانت تحاول الخداع، وكانت تأمل بالنجاح.. رامون ليس ثرياً جداً، لكن باستطاعته شراء أكثر مما تستطيعه هي.. رحلة جوية فورية إلى أي مكان في العالم، بعدها لن ترى «بيتر» مرة أخرى.. نظرت إليه وشزرها بنظرة منه جمدت إحساسها فأيقنت من فشلها.. فشعرت بإحباط شديد جعل نفسها تنفجر بقرار فوري:

ـ إذا كان الأمر هكذا.. لا يبدو أن لي خياراً كبيراً.. أليس كذلك؟ لا أشك أبداً في أنك قد تفعل بالضبط ما تقول.. وتأخذه مني، وبهذا لن أعود أراه مرة أخرى.. ولكنني لن أسمح بهذا!

وأحست بقوة في نفسها بعد إنذارها هذا وسمعت بيتر يئن وهي تضمه إليها بشدة، فجعلت تكلمه:

ـ حيث يذهب، سأذهب أنا.. فلا حاجة له أن تستأجر مربية.. قل لي فقط متى تريدنا حقاً أن نجهز أنفسنا ونكون في الانتظار.. والآن اذهب.

هز رأسه:

ـ وأعطيك الفرصة للاختفاء مجدداً؟ لا تكوني حمقاء دولوريس وهذا ما ستكونينه لو فكرت أنني أحمق.. سنطير إلى أثينا صباح الغد.. لذا فمن الأفضل أن تهيئي ما تحتاجين إليه الليلة.

نظرت إليه وأفرغت كل غضبها في صوتها:

ـ هل أنت واثق إلى هذا الحد؟

ـ بالطبع!

كانت ترى وجهه بالرغم من أن الغرفة بدأت تخيم عليها العتمة.. كانت شمس تشرين الأول قد غابت والقليل المتبقى من النور يتسلل عبر الستائر.. وكان رامون يبتسم، بمزيج من السخرية والرضى.

قالت بازدراء:

ـ وكنت تعني كل ما قلته.. عن أخذه، والممرضة، وكل شيء.. لقد رتبت كل شيء؟

رد بمكر:

ـ حتى تذكرتيّ الطائرة.. لقد نسيت أنني أعرفك جيداً.. فلقد عشنا معاً لمدة سنة.. مرة أخرى لا تعتقدي أنني أحمق دولوريس.. أستطيع أن أرى دماغك يدور في حلقات محاولاً إيجاد طريقة للخلاص.. لكن لن يكون أمامك طريقة. ستعودان معي أنتما الاثنين..

ـ لقد وافقت على هذا!

ـ وأنا أبغي التأكد من أنك ستنفذين ما وافقت عليه.. لذا أعطيني الصبي لأحمله، بينما تدسين بضعة أشياء في حقيبة، ونذهب معاً.

ـ وهل سنجلس في المطار طوال الليل؟

أشعل لفافة جديدة، لكنه أطفأها في منفضة استعداداً لحمل الصبي:

ـ بكل تأكيد، لا.. أعطيني إياه، وافعلي ما أقول. سنمضي الليل في فندقي.

ـ وستمضي الليل كله تحرس باب غرفتي.. كما أعتقد.. أم أنك فكرت بأن تقيدني إلى جهاز التدفئة؟

ابتسم بسرعة، فأشرق وجهه مما بدا معه أقل قسوة.

ـ لا هذا ولا ذاك.

وقفت، إلا أنها لم تحاول إعطاءه الصبي، فهو رجل ليس من الحكمة الوثوق به كثيراً، وهذا لم يخفف حبها له.. لا شيء يمكنه أن يفعل هذا.. لكنها كانت في شك من أمره.

ـ سأحجز لك غرفة، لكن الطفل سيبقى معي، وبهذا سأتأكد من أن كليكما ستكونان موجودين في الصباح.. فأنت لن ترحلي دونه.

ـ لا تكن أحمق.. سيطلب الطعام مرة أخرى عند السابعة وإذا ظننت أن هذا سيكفيه طوال الليل، فعقلك أصغر مما ظننت. وإذا أطعمته حوالي منتصف الليل، فهو لا بد سيستيقظ خلال الليل، ولا تستطيع فعل شيء له!

رفع حاجبه ساخراً:

ـ إذن، سنبقى كلنا معاً.

توقّفت الكلمات على لسانها وبقى فمها فاغراً، فأكمل:

ـ لا تبدي هذه الدهشة عزيزتي، فهناك سريران في غرفتي، ومكان يكفي لوضع مهد.. سأطلب من الإدارة تدبيره.. الآن اذهبي وجهزي نفسك وأعدي حقائبك، ثم اصنعي إبريقاً من الشاي.

وعلى مضض أعطته دولوريس الطفل، تلاحظ أنه مع أخذه له بعناية، إلا أنه حمله بثقة.. لكنه طالما كان واثقاً مما يفعل.. والزواج أيضاً، كان واثقاً من نفسه في هذا.. وهي لم تكن تميز الثقة بالنفس من الخبرة يومذاك. فلقد جاء هذا فيما بعد. وبتنهيدة أسى على غبائها آنذاك، دخلت غرفة النوم، وفتشت في الخزانة، وفي الأدراج، لتملأ حقيبة متوسطة الحجم.

الحقيبة نصفها من ألعاب بيتر ومصاصاته.. ولم يكن فيها الكثير لها. فقد تخلت عن معظم ثيابها التي استخدمتها وهي حامل ولم تستبق سوى ثوبين داكني اللون.. وكانت تنوي أن تشتري أشياء جديدة لنفسها، لكن، مع شدة تعبها، وعدم قدرتها على أخذ طفل رضيع معها

للتسوق، أجلت الأمر.. وهي الآن تتمنى لو أنها لم تؤجله. فالثوبان كانا واسعين، يجعلانها تبدو أكثر نحولاً.. حتى البنطلون القماشي، والجينز والقمصان، هذه الأشياء التي احتفظت بها من السنة الماضية لم تعد تناسبها.

أعاد رامون لها الولد حالما وضعت صينية الشاي من يدها، وقطب حاجبيه وهي تجلس معه يصب لها الشاي. أشار إلى البنطلون القماشي الأخضر القاتم مع القميص الواسع:

ـ أهذا أفضل ما عندك؟

احمر وجه دولوريس، فالقميص الواسع كان يخفي خصر البنطلون الواسع الذي كانت تربطه بحزام جلدي حول وسطها لتبقي ما تحته مرتفعاً. وقالت تدافع عن نفسها:

ـ أنا أكثر نحولاً الآن. ولم يكن لدي وقت لشراء شيء جديد. الأمر صعب بالنسبة لبيتر.. والطقس لم يكن جيداً، ولم أشتر له عربة بعد..

أحسّت أنها على وشك البكاء، لكن لإشفاقها على نفسها ولصدمتها برؤية رامون من جديد. فابتلعت دموعها وتقبلت فنجان الشاي الذي ناولها إياه:

ـ قلت إننا سنطير إلى أثينا.. فلماذا أثينا؟ ظننت أننا قد نسافر رأساً إلى «كورفو».

ـ لدي بعض العمل هناك.. كنت سأقيم هناك ليوم واحد، لكنني أظن أننا سنبقى لأسبوع. سأعطيك فرصة للراحة ولشراء قليل من الملابس.. فلن آخذك إلى منزلي وأنت بهذا المظهر!

* * *

٢ ـ العودة إلى الألم

استلقت دولوريس منتبهة في سريرها في الفندق الذي لم تعرفه من قبل، وجعلت تصغي في هدوء الليل.. إلى أصوات السيارات المسرعة في الشارع بين حين وآخر. سمعت أنفاس «رامون» تتردد وهو مستلقٍ في سرير آخر، بينما كان يصل إلى سمعها بين حين وآخر همهمة من «بيتر» وهو في مهده وكانت تخشى عليه من البرد.. وكان رامون يثير الإعجاب بنشاطه وقدرته على التنظيم بكفاءة كاملة. كانت سيارة تاكسي تنتظره وقد ظل عدادها يعمل دون أن يبدو عليه الإسراع في النزول إليها، معاملته لصاحبة المنزل كانت في منتهى الرقة والتسامح ومنذ وصلت دولوريس إلى الفندق، تدبر أمر الحصول على مهد لولده وأسرع بها إلى غرفته، يحمل بيتر بنفسه كأنه أمر معتاد عليه. الكثير من الرجال الإنكليز يفضلون أن يموتوا على أن يشاهدهم أحد يحملون طفلاً، لكن هذا لم يكن يقلق رامون أبداً.. ولم يلتفت إليها إلا بعد أن أصبحا لوحدهما في الغرفة.

ـ ماذا كنت تفعلين بنفسك؟ أنت لست سوى جلد وعظم.. وشعرك!

هزت كتفيها وأدارت له ظهرها.. ممتنعة عن الرد.. وماذا عساها أن تقول: التعاسة، الخسارة، البؤس.. بأية حال، كما أنها لا تريد أن تعترف له بكل هذا فتذل نفسها إلى هذا الحد، كذلك فإنها لا تملك أي

سبب جسدي يمكن أن تحتج به.

وضع الطفل النائم في مهده، وأمسك بكتفيها يديرها نحو أنوار الغرفة لتبرز هزالها بدون رحمة.

ـ لقد أمضيت وقتاً سيئاً.. معه؟ أغابي مو.

كلمة التحبب الصغيرة لامست قلبها، لكنها وقفت جامدة بينما كانت يده تمر على كتفها.. تتحسس حدة العظام من خلال جلدها الرقيق.

قالت بجرأة:

ـ ليس أسوأ من أي أم أخرى تلد للمرة الأولى..

وكانت تود لو تقول إن الوحدة كانت صعبة عليها لكنها عادت فتراجعت عن ضعفها هذا.. لم تشأ أن تبديه أمامه بهذه السهولة:

ـ أعرف أن مظهري غير لائق، لذا من الأفضل أن لا أنزل إلى غرفة الطعام لتناول العشاء.. أيمكن أن تطلبه لي هنا؟ لا أستطيع ترك بيتر على أي حال.

ـ سنتناول العشاء معاً هنا.. وسنبقى معاً من الآن وصاعداً.. تذكري هذا! فأنت لن تتركيني معه لساعتين أليس كذلك؟

هزت رأسها بسرعة، فأكمل:

ـ وأنا لن أتركك لوحدك معه.. فلقد أثبت لي أنك سريعة الهرب في الماضي.

جلست دولوريس على المقعد مرهقة:

ـ وأين أستطيع الذهاب؟

ـ ستفكرين بشيء..

وابتسم لها ابتسامة ارتجفت لها، ثم أمسك خصرها ورفع الأغطية عن أحد الأسرة:

ـ استلقي لترتاحي قدر الإمكان.. فالطفل لن يحتاجك قبل

ساعتين على الأقل.. وقد نتمكن من تناول عشائنا قبل أن يستيقظ.

وفي عمق الظلام أحست دولوريس بدمعها ينهمر مجدداً فيلذع خديها. لماذا.. أوه.. لماذا.. لماذا يجب أن تستعيد دائماً ذكرى ما حدث؟ وحاولت أن لا تسمع الصوت الخفي في رأسها والذي كان يرد عليها «لأنك لا ترغبين في التفكير بالمستقبل. ستفكرين بكل شيء عدا هذا!»

بدأ بيتر بهمهماته المعتادة التي تقول: أريد أن آكل.. فنظرت إلى ساعتها، تركز نظرها على الميناء المضيئة: إنها الثانية وهو الوقت المحدد، ولسوف يطلب رضعة أخرى قبل انطلاق الطائرة تماماً.

ونزلت بهدوء عن السرير، ورفعت بيتر من مهده، وعادت إلى سريرها، تتحسس طريقها في الظلام بدل أن تضيء المصباح الصغير لكن ما كان عليها أن تزعج نفسها.. فرامون كالقط ينام وعين واحدة مفتوحة.. أضاء المصباح من ناحيته ونظر إليها:

ـ هل كل شيء على ما يرام؟

استوت في السرير مع الطفل:

ـ أجل.. إنه عادة طيب جداً. أحياناً ينام حتى السادسة.. لكنه تحرك كثيراً من مكانه اليوم، وهذا ما أزعجه.

راقبته ينزل من سريره ويتقدم إلى آلة صنع الشاي والقهوة الآلية.. وتمتمت:

ـ ماذا تفعل على أي حال؟

ـ أحضر لك ما تشربينه.. طالما كانت «آنيد» تقول إن على المرأة أن تشرب شيئاً في وقت كهذا.. شاي أم قهوة؟

ـ أنت خبير.

ابتسم مجدداً:

ـ بل مدرب.. فلقد مررت بهذا من قبل، ولا يمكن للمرء أن

ينسى ولو بعد ست عشرة سنة! سأصنع لك الشاي، فالقهوة قد تسبب لك الأرق.. ويومنا سيكون مملتئاً بالعمل.

كانت الرحلة خاصة وليست عادية، بقية الطائرة كان مخصصاً لما بدا لها أنهم سواح تجاوزوا الخمسين من أعمارهم يسافرون في إجازات خارج الموسم.

لاحظت أن رامون كان ينظر إليهم بعين الخبير فتمتمت وهي تقفل سحاب ثوب الطفل:

ـ ليسوا زبائن مناسبين لڤيلاتك.. فلا تنظر إليهم طامعاً في أن يستأجروا ڤيلاتك.

ـ لماذا؟

كان أحياناً يستمع إلى رأيها.. فهو لم يكن في تجارة السياحة سوى منذ سنتين بينما هي تعرف هذا العمل منذ تركت المدرسة. صحيح أنها مصورة، لكن بعد أن تأخذ كل اللقطات المطلوبة، كانت تعمل في أي شيء يوكل إليها.. وهذا غالباً ما كان يعني العمل في وكالة للسفر.

قالت تشرح له بصوت منخفض لم يتجاوز مسمعه:

ـ إنهم لا يرغبون في الهدوء والخلوة.. بل يريدون رؤية الأشياء يريدون فندقاً جيداً حيث يكونون جميعاً معاً إذا أحبوا، ومحلات يستطيعون شراء تذكاراتهم منها، وكذلك يشتركون في رحلات للآثار خلال النهار، مع دليل سياحي وڤور.

ـ هناك الكثير منهم؟

ـ بالآلاف! أذكر أنه قيل لي مرة إن أمثالهم هم العمود الفقري لسوق السياحة.. يوفرون طوال السنة، كي يروا قليلاً من العالم.. ويرونه فعلاً.. لا يهتمون بحمام شمس على الشواطىء.. هم فقط يهتمون بالصور التذكارية. يريدون أشياء كهذه، وعادة خارج الموسم.

الكثير من الفنادق تعتمد على أمثالهم لتبقى عاملة أوائل الربيع وأواخر الخريف.. ولكن المسنين يعتبرون صيف المتوسط مرهقاً جداً لهم هل أعطاك هذا فكرة؟

ولاحظت أنه كان يفكر بما قاله. وقال: أجل.

الكلام عن العمل يعني أنهما لن يتكلما عن شيء آخر.. وكانت بحاجة للابتعاد عن الأمور الشخصية..

كان بيتر كعادته كالحمل الوديع.. وقد أطعمته دولوريس وغيرت ثيابه في المطار وهم في انتظار الطائرة، أما الآن، فهو نائم.. وتمنت لو تنام هي أيضاً.. لكن رأسها كان محشواً بالأسئلة.. ربما من الحكمة تركها دون ردود.. والانتظار لترى بدل أن تعرف مقدماً.. وتنهدت.. لكنها لم تكن حكيمة يوماً ما، وبكل تأكيد لا يضير أحداً لو عرفت ما إذا كانت الأمور لا تزال كما هي.. أم أنها بمعجزة ما تغيرت.. ولكن الدبلوماسية هنا مطلوبة، لذلك بدأت الكلام في موضوع بعيد نسبياً عما تريد معرفته:

ـ هل تسير الأعمال في الڤيلات على ما يرام؟

ـ بشكل جيد جداً.

ـ إلى أي مدى؟

كانت تعرف لعبته، فلقد لعبها معها قبل شهرين من هربها منه.. ويجب أن تسأل عن كل جزء من المعلومات التي تريدها.. ولم تكن تدري لماذا يسر بهذا الأمر هكذا.

ـ كلها محجوزة من بداية نيسان حتى نهاية تشرين الأول... ولدينا طلبات أكثر من أن نستطيع استيعابها.. ولدي ست ڤيلات جديدة قيد الإنشاء. ستكون جاهزة في الربيع القادم.

ـ في «كورڤو»؟

ـ ـ إنها «كيريكيرا» الاسم اليوناني للجزيرة كلها، وليس فقط اسم

البلدة «كورڤو»، كما تستخدم في كتب الدليل، لأننا..

قاطعته بحدة:

ـ لأننا إذا استخدمنا اسم كيريكيرا فلا أحد سيعرف ماذا تعني.

ـ أعطنا فرصة من الوقت.. فنعيد تثقيف العالم.. أتريدين حقاً معرفة أشياء حول الڤيلات الجديدة؟

فردت بانفعال: أجل.

ـ حسن جداً.. سأخبرك. اثنتان في «باكسوس» والأربعة الأخرى في «كريت».. فنحن نتوسع.. وإذا سارت الأمور كما هي عليه في السنة القادمة، فقد اشترينا أرضاً في رودس تكفي لڤيلتين هناك..

ـ اشتريتم؟

ـ شركة ماركوراس وابنه المسجلة.. إنه ما زال خطيراً جداً أن يكون بيتر حاملاً للأسهم، لكنه سيكبر.

ولامس خد بيتر.. لكن هذا لم يكن كافياً لأن يريح دولوريس. كان يعني بالنسبة لها أن رامون لديه خطط بعيدة المدى للطفل. وهي تتساءل الآن أية خطط يخبئها لها حين لا يعود بيتر بحاجة إليها.

ثم سألت بهدوء:

ـ كاترينا.. لا بد أنها قاربت السابعة عشرة الآن.. كيف حالها؟

رد ساخراً:

ـ إنها غارقة في غرام كبير آخر.. غرام مدرب تزلج على الماء، كما أعتقد. «يانيس» تعتقد أن سنة تقضيها في مدرسة التحضير النهائية في «سويسرا» ستوقف هذه «النوبات» الرومانسية.. مع مراقبة دقيقة، وصحبة فتيات أخريات من نفس عمرها.. فما رأيك؟ هل ستنجح؟

لوت دولوريس شفتيها ببراءة لمنع نفسها من أن تصارحه برأيها الخاص.. وسيطرت على أفكارها لتقول:

ـ لماذا لا تكلم «كاترينا» بالأمر؟ اسألها إذا كان هذا ما تريده أم

لا. فإنها بلغت من النضج ما يكفي للتفكير بشؤونها كما أنها هي تعرف هذه الحقيقة.

لمعت عيناه بغضب وقال:

- وأن سنها يساعد على الزواج أيضاً، لكنها تأخرت في هذا إذ رفضت النظر إلى «تاكيس» الشاب قائلة إن وجهه مليء بالبثور وانه بدين، وقد بدأ أهله يتعجبون لهذا التأخير في الزواج.

فقالت دولوريس ساخطة ولكن مع شيء من المسالمة:

- أنتم اليونان! متى ستدركون أن أيام الزيجات المدبرة قد ولّى؟ لا يمكنك أن تتوقع من فتاة ناضجة حساسة مثل «كاترينا» أن تتقبل الزواج من شاب لم تلتقِ به سوى بضع مرات.. ألا زال عنده بثور في وجهه؟

فابتسم ريمون وقال:

- ما زال عنده القليل كما أنه ليس سميناً إلى الدرجة التي تمنعها من زواجه، فكلما جاء أهله لزيارتنا أراها قد اختفت مما يسبب الحرج لهم ولنا أيضاً.

قالت بهدوء وهي تنقل بيتر من الذراع الأيمن إلى الأيسر: صعبة المراس!

إن بيتر يزداد وزناً في كل يوم يمر، حتى صارت تحس أن ذراعها سوف يخدر.. وهي لم تكن تحس بالهدوء في داخل نفسها، ربما كان السبب هو مجرد تفكيرها بأنهما لو كانا وحدهما بدلاً من أن يكونا في طائرة ممتلئة بالناس، لصرخت في وجه رامون قائلة: أبعد يانيس بدلاً من أن تبعد كاترينا. ثم فكرت: يانيس تلك المرأة الفاسدة، التي ظنتها في البداية قريبة للعائلة.. إلى أي مدى يمكن أن تكوني بلهاء؟ وأدارت رأسها نحو النافذة، تنظر إلى الخارج، وإلى الأسفل، ومنظر الأرض تحتها يمر بسرعة.. لكنها لم ترَ شيئاً.. لم تستطع رؤية شيء، فقد عادت إلى الماضي مجدداً.. إلى اليوم الذي بدأ فيه عالمها يتساقط..

كان رامون سيذهب إلى أثينا في بعض الأعمال.. وقت الفطور طلبت يانيس أن يأخذها معه.. وقالت ملوحة له برسالة:

- أنباء رائعة.. ماريكا، صديقتي في أثينا، تلك التي تملك البوتيك، تقول إن ملابس جديدة وصلتها من باريس، وأنا بحاجة ماسة لشيء جديد.. ستأخذني معك، أليس كذلك رامون؟

وكان هذا أول العبث.. وقال رامون إن دولوريس لن ترغب في الذهاب، لأن بقاء يوم وحدها في أثينا وهو منهمك في اجتماع العمل فإنها لن تعرف كيف ستقضيه وهي وحيدة، فهي لا تتكلم اليونانية ولا تعرف أحداً، لذلك فإن الملل سيتعبها طيلة اليوم، في الحقيقة أن الجميع كان إلى جانبه.. ثم ذهبت إلى قمة الجرف الصخري لتراقب مركبه يقلع من مرساه ويتجه إلى الجنوب.

فيما بعد عادت إلى الڤيلا، وهزت رأسها موافقة بتفهم حين أشارت لها ايلڤيدا، الطباخة، بأنها تريد الذهاب إلى «بالبوكاستريتسا» لزيارة ابنها الذي يدير مطعماً صغيراً هناك، وراقبت جسم ايلڤيدا المتشح بالسواد يسرع مبتعداً لتلحق بالباص، متعجبة من أن المرأة المسنة تعرف دائماً موعد وصول الباص.. بينما هي نفسها لم تستطع يوماً اللحاق به.. ثم فتشت عن كاترينا، وهي غاضبة من رامون لأنه لم يعرض أخذ ابنته معه.

لكن كاترينا كانت قد اختفت، ربما نزلت إلى الميناء، وستعود وقت الغداء، لكنها لم تعد.. ومع حلول الساعة الرابعة بعد الظهر، بدأت دولوريس تقلق.. الطريقة الوحيدة أمامها هي الذهاب للتفتيش عنها باستخدام عربة الشاطىء التي تعلمت قيادتها بعد بضع دروس أشعرتها بالثقة.

أخيراً وجدت كاترينا، بعد بحث دون جدوى بين المتنزهين على الشاطىء.. ووجدتها في كابين على الشاطىء مع شاب يوناني يعمل

على أحد مراكب النقل اليومية.. وما حدث بعد ذلك لم يكن أمراً سهلاً.. كانت كاترينا صاخبة صعبة المراس بينما خرج الشاب من باب الكابين مثقلاً بالتعاسة والحرج كما بدا عليه.

جنت كاترينا غضباً، وتدفق الكثير من الكلام من فمها:

ـ انظري الآن ماذا فعلت!

وأكملت تخبرها كيف كانت ستهرب مع أنطونيوس.

ـ سنعود بالطبع، وسيضطر أبي للموافقة على زواجنا.. وعائلة بابلوڤيلوس ستضطر إلى التفتيش عن فتاة أخرى لابنهم السمين المليء بالبثور!

حاولت دولوريس إقناعها بالمنطق، لكنها لم تنجح، وواجهتها كاترينا بوجه قد احمر غضباً وخيبة أمل وعينين ملؤهما التحدي والحقد:

ـ أنت.. أنت تحاولين القول لي! أنت تقولين إنني حمقاء! أنت الحمقاء! ولهذا تزوجك أبي.. لأنك حمقاء! إنه لا يحبك، إنه يحب يانيس! إنهما عاشقان منذ جاءت إلى هنا، بعد موت أمي! ولماذا تظنين أنهما ذهبا إلى أثينا معاً؟ إنها دائماً تذهب معه.. انتظري وسترين بنفسك!

حاولت دولوريس المزيد من الإقناع بالمنطق، لكن كاترينا كان يمنعها شدة غضبها وانفعالها من أن تسمع.

ـ أبي لا يحبني.. أنا فتاة، ويجب أن أتزوج في أسرع وقت ممكن، وبالنسبة لك، كل ما يريده منك هو إنجاب ابن له.. ولهذا تزوجك.. وسيبقى هو ويانيس عاشقين.

تذكرت دولوريس أنها سارعت لإخفاء البرودة التي اجتاحتها:

ـ كلام سخيف! يانيس هي خالتك، ولو أراد أبوك أن يتزوجها لفعل هذا منذ سنوات.. بعد موت أمك.

قالت هذا لتقنع نفسها أكثر من إقناع كاترينا.. لكن ابنة رامون كان لديها الرد على هذا:

ـ إنها ليست خالتي.. بل مجرد ابنة عم بعيدة لأمي.. وأبي لن يتزوجها أبداً.. فهي لا تنجب الأولاد!

احتاجت دولوريس إلى الكثير من التهدئة والصبر الطويل لتعيد كاترينا إلى القيلا، وتطعمها وتضعها في الفراش، حيث بكت إلى أن نامت.. وفي المكان المظلم الفارغ جلست دولوريس ترتجف وهي تحلل المعلومات.. لا بد من وجود شيء ولو صغير من الحقيقة في كل هذا.. لا يمكن لكاترينا أن تختلق هذا دون أساس.

أمضت ليلة دون نوم، حتى اعتذار كاترينا في الصباح التالي لم يساعدها كثيراً.. فقد سرت سموم الشك داخل نفسها حتى أصبحت تفهم معاني مزدوجة لأتفه الأشياء، ووجدت نفسها تصبح باردة غير متجاوبة، متوترة، وشكاكة.. وفسد كل شيء بالنسبة لها، وحين ذهب رامون للمرة الثانية إلى أثينا، وذهبت يانيس معه، هذه المرة بحجة تصفيف شعرها قائلة إنه لا يوجد مصفف للشعر في كل كيركيرا يعجبها، أكد هذا وبكل قوة شكوكها.

الضربة النهائية جاءت بعد وقت قصير من هذا.. فقد بدأت تشعر بتأخر في صحتها، ووجدت نفسها حاملاً دون أن تشعر. ومن نافذة غرفة نومها، رأت رامون ويانيس معاً في الحديقة تحت ضوء القمر.. وما رأته لم يكن مجرد قول سمعته ولا شكاً، بل شاهدته بأم عينيها.. كان رامون يلف ذراعيه حول يانيس ويدي يانيس ترفرفان كالفراشة على مؤخرة رأسه وهو يعانقها..

إنه برهان قاطع.. وفي اليوم التالي فعلت شيئاً.. ذهبت إلى بلدة كيركيرا بالباص، خالية الوفاض إلا من جواز سفرها، ومالها، وبضع ملابس داخلية حشرتها في حقيبة كتف.. وكذبت دون تردد وهي تقول

إن لديها بضع أشياء للتنظيف، وإنها ستتناول الغداء في الخارج، وربما تذهب إلى السينما.. لكنها بدلاً من كل هذا، ذهبت مباشرة إلى المطار، واستقلت أول مقعد متوفر في طائرة إلى لندن، جلست فيه جامدة كتمثال طوال الرحلة. يائسة جداً وضائعة، لا تستطيع البكاء.. فالبكاء سيجيء فيما بعد.

كل هذا كان مضيعة وقت وجهد.. فها هي تعود إلى نفس ما هربت منه.. كاترينا أكثر عناداً، ويانيس لا زالت هناك. وعلى الأرجح سيحاول رامون التخلص من زوجته حال فطام بيتر.. لكن، هذه المرة سيجد الأمر صعباً.. فهي لن تترك ابنها ليانيس.. فليكونا عاشقين، وليظهرا ذلك الحب أمامها.. لن تهتم. فهي لن تفترق عن بيتر.. فهي وابنها إما أن يبقيا معاً أو يرحلا معاً! ولن تكون بلهاء بعد اليوم.. ولو أنها لا زالت تحب زوجها.

طقطقة المعدن، وصوت المضيفة المرح، أزعجاها. وارتجفت دولوريس دهشة للوقت الذي مر بسرعة.. لقد عاشت مرة أخرى مرحلة من أكثر المراحل عذاباً في حياتها، ولم يستغرق هذا سوى أقل من عشر دقائق! ولم تشعر برغبة في تناول محتويات اللفافة المعدنية التي وضعت أمامها، لكنها كانت تعرف أن البقاء هكذا دون طعام سيجعل بيتر مضطرباً مليء البطن بالغازات.. هكذا سمحت لرامون بأن يفك لها اللفافة المعدنية، وبما أن لها يد واحدة حرة، أخذ يطعمها بيده.

حطت الطائرة في أثينا.. نادى رامون تاكسي للرحلة القصيرة إلى المدينة.. وتذكرت كم كانت سعيدة آخر مرة أقامت فيها في أثينا، لكنها أفسدت الذكرى، بأن تذكرت أنها كانت مجرد تمثيلية من جانب رامون.. لكنها لم تسمح لشيء بأن يظهر على وجهها حتى ولا حين توقف التاكسي أمام الفندق الذي أقاما فيه من قبل، وتمتمت:

ـ العودة إلى مسرح الجريمة.

وكادت تنفجر بضحكة عالية للنظرة الحائرة على وجه رامون.. فهو بالطبع لا يعرف أنها تعرف شيئاً عنه مع يانيس.. ويجب عليها أن تلعب الدور بحذر.. هكذا تصنعت ابتسامة مشرقة لا معنى لها على وجهها تسأله:

ـ وهل سيتمكنون من تقديم العشاء لي في غرفتي؟

بدا عليه التعاطف والاهتمام، أو هكذا تمكن أن يظهر:

ـ سيقدمون لك صينية في الفراش إذا كنت متعبة، أما أنا فسأتناول العشاء في غرفة الطعام.

ـ وهل تثق بي إلى هذا الحد؟ قد آخذ بيتر وأختفي بينما تتناول عشاءك.. كنت أكثر حذراً في لندن.. أم أنك لا تظن أنني أجرؤ؟

استدار عن الطاولة الصغيرة بين السريرين يلوح بكتيب أزرق مغلف بالذهب:

ـ أنا أتعلم بالتجربة.. فهذا جواز سفرك.. لن تستطيعي الذهاب إلى أي مكان دونه، وسأبقيه معي للاطمئنان.

راقبته بذهول وهو يضعه في حقيبة الجيب. وقالت بحدة:

ـ إذن يجب عليّ أنا أن أراقبك؟.. باستطاعتك الذهاب إلى أي مكان، وأخذ بيتر معك، وتركي هنا «مقطوعة».

راعها أنه بدا الغضب على وجهه بسرعة جعلها تجفل، ولم تكن قد شاهدته غاضباً من قبل.. وكان صوته بارداً جافاً.

ـ أنت تدعين حبك الأمومي المبالغ فيه يغلف حكمك.. ابني سيبقى معي، وبما أنك أمه، وهو يحتاج إليك ستبقين أنت كذلك، سنبقى معاً. أنت زوجتي، ولا يهمني أعجبك هذا أم لا، وهذا شيء لا أريده أن يتغير.. لست أدري ما الذي دفعك إلى الهرب من قبل.. أيمكن أن يكون السأم؟ لكن لن تتاح لك فرصة لكي تفعلي هذا

مجدداً..

قاطعته بشراسة:

- وهل سأكون سجينة؟

- سيحدث هذا إذا أردت أنت أن ينتهي الأمر إليه.. لقد عانيت الكثير من الإذلال على يديك.. كرجل هربت زوجته منه.. ولن أذل أكثر من هذا.. أتفهمين؟

انتظر رداً.. لكنها رفضت أن تنظر إليه.. فهذا جانب جديد من شخصية رامون، جانب لم تكن تعرف كيف تتعامل معه، لكنها ستتعلم!

رفعت ذقنها متحدية:

- لقد أخطأنا، وهذا كل شيء.. كان يجب أن نكتفي بغرام لفترة الإجازة، دون تعقيد، ونترك الأمر عند هذا الحد.

لو أنه لا زال يجهل معرفتها بعلاقته مع «يانيس» فستتركه مع جهله.. فإعادة سرد كل شيء له لن ينفعها في شيء، بل سيزيد التعاسة بينهما.. وأكملت تشرح بفتور:

- نحن من عالمين مختلفين.

وأضاف:

- ومن جيلين مختلفين تقريباً.

كان الغضب قد تلاشى من صوته، وبدا حزيناً فشعرت دولوريس بالحب والشفقة عليه فقالت برقة وعطف:

- لست أكبر مني بكثير.. فما عمرك الآن.. أربعون؟ توقف عن الكلام وكأنك أصبحت جداً.

ولتغير الموضوع، أكملت:

- أنا سعيدة لأنني جئت بآلات التصوير معي، مع أنني سأفتقد تلك الصغيرة التي أهديتني إياها.

إنها زوجته، ولقد قال لتوه إنه لا يريد لهذا الواقع أن يتغير، لذا يجب عليها أن تتكيف.. لكن فكرة أن يتكيف هو يوماً جعلتها تبتسم.. فهو لن يستطيع أبداً، ولن يفعل! ولا يستطيع المرء العيش في اكتئاب مستمر، بل عليه أن يتحمل الحياة.

لاحظ رامون الابتسامة، فقطع الغرفة يمسك بيديها، أصابعه تملس العظام الرقيقة البارزة، ويتلاعب بخاتم زواجها الواسع جداً.

- سأشتري لك كاميرا في الغد ثم نشتري لك بعض الثياب، وبهذا تستمرين في التقاط الصور..

لفترة قصيرة، ساد السلام بينهما.

تلك الليلة، والليالي الأخرى لإقامتهما في «أثينا»، تشاركا نفس الغرفة.. السريران منفصلان بمهد بيتر.. وتذكرت دولوريس ما قاله رامون حول الإذلال.. لذا لن تذله بعد الآن بالمطالبة بغرفة لوحدها، وبكل تأكيد ليس في مكان عام مثل الفندق.. لكن في الڤيلا سيكون الأمر مختلفاً..

كان لأثينا سحر خاص.. كانت تؤمن أنه ينبعث من الحجارة القديمة العهد للأكروبوليس.. وبالتدريج بدأت تشعر أنها أفضل حالاً، وأخذ التوتر فيها يتلاشى، وبدأت تتمتع بالحياة مرة أخرى. إذ خصصت مرافقة دائمة للطفل، أخذت دولوريس تخرج مع رامون في جولات صغيرة.. يسيران في نفس الطرقات ويزوران نفس الأمكنة، التي سارا فيها وزاراها خلال شهر عسلهما.

هزت رأسها غير موافقة حين اقترح الذهاب في رحلة إلى «ديلفي» لكنه أقنعها بأن الرحلة هذه مفيدة.. فلن يتضايق بيتر من رحلة السيارة، ولن يعرف الفرق بين فندق وآخر.. هكذا استطاع إقناعها. وأمضيا الليل في فندق سياحي جديد، حيث اهتمت الخادمات كلهن ببيتر السريع النوم.. وتعلمت دولوريس أمراً واحداً.. اليونانيون

يحبون الأطفال.. والحمال الذي يحمل حقيبة وهو يتذمر، قد يتوسل ليحمل بيتر.

كان هناك جو هادىء غير معقول بين خرائب «ديلفي» وكأنما صلوات كل الحجاج الذين جاءوا إلى هذا المزار التاريخي، ألقت غلالة ناعمة حول كل الخرائب التي تحتل مساحة واسعة.. وجلست دولوريس فوق العشب الدافىء بتأثير أشعة الشمس، وأحست بالراحة...، ونظرت إلى زوجها يحمل طفلهما دون حرج.. على عكس الرجال في بلادها.. لو أنهما يبقيان هنا، فسيحلان معاً كل مشاكلهما، وسيسعدان مجدداً.. لكن خرائب «ديلفي» مكان مميز.. واحة راحة وسط عالم مجنون، ولا يمكن لأحد أن يبقى هناك إلى الأبد.

في الغد سيسافران إلى «كورفو» وسيعود الألم كله إلى التدفق مرة أخرى.. وهناك، في الڤيلا، عند قمة الجرف الصخري، ستعود إلى وسط الدوامة مجدداً.. عشيقة رامون ستغدق عليها قبلات الترحيب المزيفة.. وتتظاهر أنها مسرورة لعودتها.. ثم سيكون هناك كاترينا بعينيها الشابتين المليئتين بالتحدي الذي ينبىء بأنها أصغر سناً من أن تتعامل معها.

***

٣ ـ رغبة وليست حباً

جاء رامون بهم إلى بلدة «كيركيرا» بتاكسي جوي من أثينا.. وكانت دولوريس لا تزال مصرة على دعوة البلدة «بكورفو» فهي بهذا تعني لها شيئاً، ورفعت حاجبيها دهشة للتكلفة، لكنه هز كتفيه دون مبالاة:

ـ إنها رحلة طويلة بحراً، ومتعبة كذلك، خاصة على متن إحدى الناقلات.. هذه الطريقة أسرع وأفضل.

قالت بلهجة لاذعة:

ـ أنت تسهل الأمور بطريقة جميلة.

لكنها ندمت على قولها حين وقعت عيناها على مجموعة الحقائب الجديدة، وفكرت بما تحتويه.. خزانة ملابس مكتملة تناسب الشتاء في «كورفو» إضافة إلى أزياء إيطالية رائعة، وذكرت نفسها أن رامون تحمّل كثيراً تقلب مزاجها.. وفي الواقع أنه لولا نزوعها إلى المشاكسة أحياناً، لاتفقا معاً بشكل جيد جداً.

لكنها اعتبرت أن من حقها المشاكسة لو أحست أنها تريد، فهي الطرف المجروح.. هي التي خانها.. وأجبرها على الهرب، لتؤسس بيتاً وحدها ولكي تكون وحدها أيضاً حين تلد طفلها. إنه يتصرف وكأنه هو الطرف الجريح! وأنها هي المذنبة التي تطلب منه الغفران.. ولكن هذا التصرف منه لم يكن إلا محاولة لإنقاذ كرامته ولقد تعلمتْ

درساً من هذا التصرف.

المطار الصغير كان هادئاً فارغاً تقريباً حين مرا به، سيارة رامون، الرانج روڤر البيضاء، كانت تنتظرهم في موقف السيارات. مغبرة قليلاً، لكنها سالمة.

ـ ساعة ونكون في المنزل.

واضح أنه لا يعي أن كلامه المفترض أن يكون لراحتها هو في طبيعته تهديد لها. ففكرة استقبال كاترينا، وطبع قبلات «النفاق» على خديها، كانت أكثر مما تتحمله.. لكن يجب أن تتحمل.. وكاترينا.. كيف ستقابل كاترينا حضورها؟

قاد السيارة شمالاً.. كان لا يزال هناك الكثير من السواح المتأخرين في إجازتهم هناك، لكن الطرقات لم تعد مكتظة بالمتسكعين والدراجات الهوائية والنارية. وكانت لهما الطريق الجبلية الملتوية حتى «ماركارادس» لوحدهما.. وهذا أفضل لهما، فالمنحنيات التي تقشعر لها الأبدان، طالما أخافت دولوريس حتى الموت.. واشتدت ذراعاها حول بيتر، وانحنت فوقه كأنما تحاول أن تحميه من الأذى.

لم يكن أحد يتوقع وصولهم.. ولم يخرج أحد مسرعاً إلى «الرانج روڤر»، وهي تقف قرب الڤيلا، تحتجب مقدمتها بين أشجار صغيرة من الورود البرية.. ولطالما كانت تلك الورود هناك، ولم يفكر أحد بتحريكها من مكانها.

قالت دولوريس:

ـ سأحمل الصبي بنفسي.

كانت وكأنها أنثى الذئب مع جروها الوحيد، وهو يساعدها على النزول من السيارة المرتفعة.. وتأملت المناظر عبر الشرفة بنظرات العداء، وقالت ساخرة:

ـ أليس من لجنة استقبال.. لقد خاب أملي!

ارتسمت على وجهه المتجهم ابتسامة مسترخية:

ـ ما من مجال.. فالهاتف كان معطلاً، وحاولت عدة مرات إلى أن قالت لي عاملة الهاتف إن الخطوط معطلة.

ـ ومتى كانت غير معطلة؟

كان على الشرفة كرسي طويل مهجور، وهزت رأسها ساخرة وهي تمر بها، فالمفارش في إحدى زواياها ملطخة بماء المطر.. ثم سمعت وقع أقدام خفيفة، انفتح الباب، ووقفت كاترينا هناك.. لقد تغيرت كاترينا قليلاً في هذه السنة التي مرت. ربما كبرت إنشين أو ثلاثاً.. لكن هذا كل شيء.. وتدفقت الكلمات من كاترينا وكأنها كانت تكتمها طويلاً.

ـ بابا.. لقد عدت مع دولوريس والطفل! لقد احتفظت بالسرّ، حقاً.. لكنني أعتقد أن يانيس تعرف.. ولست أنا التي قلت لها!

وكان وجهها الصغير يتألق بفرحة الفضول وهي تبتعد عن أبيها وتتقدم نحو زوجته.

ـ أهلاً بك في بيتك دولوريس، وبأخي بيتر.

أصابعها المتلهفة أبعدت الغطاء ونظرت إلى الرأس الصغير بغطائه الأسود من الشعر الناعم:

ـ أوه.. أليس صغيراً جداً؟ هل أستطيع حمله؟

كانت دولوريس تخاف من غيرة كاترينا. فالفتاة كانت دائماً غاضبة من كونها أنثى، لا قيمة لها إلا بالزواج... لكن كاترينا لم تكن تعرف التمثيل، ووجهها كان يعكس مشاعرها، فقد بدت سعيدة.. وهي سعيدة فعلاً!

تابعت تقول:

ـ إيلڤيدا قالت إن المهد سيكون كبيراً عليه.. وستكون العربة أفضل.

عاد رامون إلى السيارة للمجيء بالحقائب، فلامست كاترينا ذراع دولوريس.

ـ أنا سعيدة لعودتك إلى المنزل دولي.. لقد اشتقت إليك.. بابا يغيب كثيراً والمكان ممل هنا.

التوت شفتا دولوريس:

ـ سمعت أباك يقول شيئاً عن مدرب تزلج على الماء يشغل الكثير من وقتك؟

أعطتها بيتر، ومطت ذراعها المتخدر من حمله طوال الوقت. رفعت كاترينا ذقنها متحدية تقول في محاولة مثيرة للشفقة أن تبدو كبيرة ومتفهمة:

ـ يجب عليّ أن أمضي الوقت بطريقة ما.. أليس كذلك؟ أوه.. سأخبرك بالأمر لاحقاً.. يانيس تنزل السلم الآن.

حملت الطفل بحذر، ونادت المرأة الصغيرة النحيلة الجسم التي توقفت عند الدرجة الثالثة في أسفل السلم، لتنظر بسرعة في الردهة قبل أن تستدير بابتسامة متزمتة إلى دولوريس التي أكملت فرك ذراعها وهي تستوعب الصدمة في النظرة العدائية للعينين السوداوين الشبيهتين بعيني الأرنب، القاسيتين كالحجر.

ـ الجوّالة قد عادت، تحمل، أو كاترينا تحمل، ثمرة مغامرتها.

كانت تعرف أن ما تفوهت به كان خطأ.. ولهجتها المرحة الخفيفة خطأ كذلك. لكنها لم تستطع منع نفسها من قول ما قالت.. لا بد أن رامون كان يضع السيارة في الكاراج فكانت تحس كالحمل المتروك وحده أمام الذئب.

لكن، بكل تأكيد، لا تبدو يانيس ذئباً أبداً.. امرأة صغيرة الجسم نحيلته، سوداء الشعر والعينين، بوجه يشبه وجه «المادونا» وجسد حورية غابات. ولم تكن تبدو في الثالثة أو الرابعة والثلاثين أبداً.. في

ضوء ضعيف، لا تبدو أكبر بكثير من كاترينا.. وأعجبت دولوريس بوقفتها على الدرجة الثالثة. فقد جعلها هذا تبدو مثل تمثال رخامي لآلهة قديمة فوق قاعدته. بهذا تستطيع أن تنظر إلى الأعلى إلى دولوريس.. وابتسم وجه المادونا لتنفرج الشفتان الحمراوان، وتظهران أسناناً صغيرة منضدّة بيضاء، وقالت:

ـ كنت قد يئست من رؤيتك مجدداً يا دولوريس بعد طول أمل وتوقع.. لكننا نرحب بك.

وصرت دولوريس بأسنانها بصمت. أراهن على هذا!.. هل من المفترض بها أن تجثو إلى الأرض، وتتذلل، طالبة الصفح عن خطاياها؟.. من المؤسف أن تلجأ يانيس إلى الكلام، فصوتها لم يكن مستساغاً كبقية شكلها.. حتى وهي تتكلم برقّة كما تفعل الآن، فإن لصوتها نبرة خشنة منفرة.

تمتمت تجيب: شكراً..

لا بد أن رامون كان يدخل الباب لتوه، يحمل الحقائب، واستطاعت معرفة هذا من تركيز نظرة يانيس على نقطة ورائها.

نزلت يانيس السلم، ورفعت نظرها إلى رامون، فهي لا تمانع أبداً أن ينظر إليها من الأعلى:

ـ عزيزي! لقد غبت طويلاً.. ظننا أنك لن تعود.

امتدت يداها الصغيرتان إليه وهي تمر بدولوريس تحييه.

لقد صرف النظر عنها! وكأنها خادمة منزل تلقت توبيخها لغلطة ارتكبتها، ثم جرى تجاوزها مع مرور السيدة بها لتحيي شخصاً آخر أكثر أهمية.

لحقت بكاترينا وقالت:

ـ هل لنا أن نأخذ بيتر إلى الأعلى؟ لقد حملناه كثيراً اليوم وأعتقد أنه بحاجة إلى تغيير.

ـ أوه.. أجل.. دعينا نأخذه! سنرى إذا كانت العربة كبيرة بما يكفي.. وأرجو هذا.. لأن ايلفيدا جعلتني أصنع غطاء موسلين جديد لها، فهي لم تستخدم منذ زمن بعيد.. الغطاء القديم كان لونه أصفراً، تصوري؟ هذا أخي! أتعرفين دولي، كنت دائماً أفكر أنني سأكره أخاً عند رؤيته، لكنني لم أفعل.. إنه صغير جداً وعاجز، وأنا لا أحسده أبداً..

دخلنا غرفة نوم كبيرة:

ـ لقد وضعنا المهد قرب السرير لتصلي إليه بسهولة إذا استيقظ خلال الليل.. أوليس هذا ذكاء مني أن أتذكر على أي جانب من السرير تنامين؟

ردت دون تفكير وهي تقطع الغرفة إلى باب داخلي موصل إلى غرفة ملابس صغير وهي تنظر إلى داخلها:

ـ أجل إنه ذكاء كبير.

الفراش الضيق كان لا يزال هناك.. وسمعت كاترينا تنهيدة ارتياحها المنخفضة.

ـ أوه دولي، لن تضعيه هناك.. أليس كذلك؟ سيكون وحده، وقد لا تسمعينه إذا بكى.

كادت تقول: ليس بيتر بل أباك.. عند ذاك عضت لسانها لإيقاف الكلمات.. شخص ما يجب أن ينام هناك، إما رامون أو هي، ولا يهمها من. لكن هذا يجب أن يكون أمراً خاصاً جداً.. وكانت تشعر بكرم أخلاق يكفي لتوفر على رامون المزيد من الإذلال.. حتى ولو فكرت كم أذلها!

قالت توضح الوضع:

ـ بيتر أحياناً يبكي كثيراً.. أردت فقط أن أرى إذا كان هناك مكان أستطيع أن آخذه إليه.. لا أريده أن يبقي أبيك مستيقظاً طوال الليل،

وهو قادر على هذا تماماً. والآن.. أخبريني ماذا كنت تفعلين وأنا غائبة؟

جلست كاترينا فوق السرير إلى جانب دولوريس تراقبها وهي تعرّي الطفل.

ـ قال بابا إنني أستطيع أن أعمل لو وجدت وظيفة.

لاحظت دولوريس ابتسامة صغيرة تتألق بمعنى الانتصار على فم ابنة زوجها «وغمازة» في خدها:

ـ هكذا وجدت لنفسي عملاً في المرفأ في مكتب حجز تذاكر للتزلج المائي ورحلات قوارب.. لكنها وظيفة لا تربح كثيراً، لذا ذهبت إلى أحد الفنادق كموظفة استقبال.. وكان هذا عمل أفضل.. حين يكونون مشغولين، أقوم بكل الأعمال اللازمة.. فأرتب الأسرّة وأخدم على الموائد.. وأظن أن هذه أفضل وظيفة للكسب، فالناس يعطونني مبالغ كبيرة من «البقشيش»!

لوت دولوريس فمها ضاحكة:

ـ وبالطبع أنت تحتاجين إلى المال.. كم عمرك الآن كاترينا؟

ـ ستة عشر وبضعة شهور..

سوت الفتاة لفائف بيتر ولامست خده بإصبعها بلطف وقالت:

ـ إنه العمر، كما يقول والدي، الذي يجب على الناس أن يبدأوا بتحمل شيء من المسؤولية.. ايلفيدا تصنع الشاي، وقد سمعت أبي يطلب منها هذا.. أترغبين أن آتي لك بفنجانك إلى هنا؟

ـ لا.. شكراً لك عزيزتي.

وتوصلت دولوريس إلى قرار فوري.. إنها هنا بغير إرادتها الحرة، وربما بغير رغبتها ورضاها. لكنها ستكون ملعونة لو جلست وحدها «حردانة» في غرفة النوم.

ـ سأضع بيتر في المهد، وأغسل يدي ووجهي، ثم أنزل.

قفزت كاترينا واقفة:

ـ «إنداكسي» سأساعد إيلثيدا، كجزء من دور «الشخص المسؤول» تعرفين.

واكتسى وجهها بنظرة مضحكة وهي تخرج إلى الشرفة الواسعة الممتدة على طول الطابق الأعلى.

كانت وحدها، وضعت دولوريس ابنها في المهد.. إنه لن يحتاج إلى رضاعة الآن ولا قبل ساعة على الأقل.. ونظرت إلى وجهه وهو نائم بعاطفة تكاد تكون كالعبادة.. إنه جميل جداً، وطفل لطيف. ثم دخلت الحمام لتغتسل.. نظرت بأسى إلى المغطس وكادت تضع السدادة وتدير الماء فيه.. لكن المياه ثمينة في كورقو، وكل نقطة تستخدم في المنزل يجب جلبها بواسطة خزان يُضخ منه إلى خزان ضخم آخر تحت الشرفة المسقوفة.. وعلى أي حال، فإن رامون لم يأت بعد بحقائبها.. ولعله مشغول جداً بالسلام على يانيس.. لذا فإنها لن تستطيع تغيير ثيابها.. وستأخذ دوشاً سريعاً قبل العشاء وتغير ثيابها.

أما الآن، فقد اغتسلت من غبار السفر، وفضلت أن تكتفي بالبنطلون الأحمر الكرزي، والقميص الحريري الفاتح اللون.

وحين عادت إلى غرفة النوم، كان رامون هناك، يقف منحنياً فوق المهد، فأسرعت تضع نفسها بينه وبين الطفل، وكأن الطفل بحاجة لأن تدافع عنه. قالت بضراوة:

ـ إنه بخير.. وسينام لساعة أخرى، ولا أريده أن ينزعج.

فاعتدل في وقفته وابتسم لها:

ـ كنت أنظر إليه فقط. هل كل شيء على ما يرام؟ المهد على الجهة الصحيحة التي ستنامين فيها؟

استدارت دولوريس مبتعدة، تتجه إلى منضدة الزينة.. وفي المرآة

التقت عيناها بعينيه، وقالت:

ـ سأنام في منتصف السرير.. لذا لا يهم إلى أي جهة كان المهد.. أليس كذلك؟ أو، إذا كنت تفضل..

وأشارت برأسها إلى غرفة الملابس:

ـ أستطيع نقل المهد إلى هناك، وأستخدم السرير بنفسي.

راقبته بهدوء ووجهه يقسو ليصبح قناعاً لا لون له.. وهذا يعني أنه يفقد أعصابه، ويحاول إخفاء الأمر. لكنها أحست بالشجاعة، فأضافت:

ـ شعاري هو أن أبدأ كما أريد أن أستمر.. وهذا ما سأفعل!

ـ إذن، لدي زوجة، ترفض أن تكون زوجة..

كان هذا سهلاً، واشتد الشعور بالنصر في نفسها:

ـ فهمتها دفعة واحدة! لكن لا تخشى شيئاً.. لن يعرف أحد بهذا غيرنا.. ولن تنتقل الشائعات.. ولا تقلق حول المزيد من الإذلال العلني.. خارج هذه الغرفة، سأمثل دوري.. سأكون الزوجة المكتملة.. لكن خلف هذا الباب، بإمكانك القول إننا سنصبح قطبين متنافرين.

الأمر يسير بسهولة، ومن العار أن تتوقف هنا:

ـ لقد ذكرت إذلالك حين كنا في أثينا.. وكيف عانيت كرجل يوناني هجرته زوجته.. حسن جداً.. دعني أقول لك، إذلالك لم يكن شيئاً أمام إذلالي! ولماذا تظن أنني تخليت عنك إذن؟

وكان رامون قادراً على التحرك كالبرق حين يريد، ويبدو أنه هذه المرة أراد هذا. خطوتان، وكان يقف خلفها ويمسك بكتفيها، يديرها بقوة لتواجهه.

أحست بأن صوته يثقب أذنيها رغم هدوئه:

ـ إذلالك؟ ما معنى هذا؟ هل هي حماقة حلمت بها؟ أعرف أن

الحوامل لديهن مثل هذه الخيالات.

وأرادت أن تنكمش أمام عينيه السوداوين لكن الكبرياء منعتها:

ـ وكأنك بحاجة لمن يقول لك! وأنا لم أحلم.. فأنا لم أكن أعرف أنني حامل.. فكيف أحلم!

أقفلت فمها بشدة وانكمش أنفها كمن يشم رائحة قذرة في مكان ما.

ـ وماذا من المفترض أنني فعلت؟

لم يكن يصيح، فليس محتاجاً للصياح، وجهه كان قريباً جداً من وجهها، وأحست بأنفاسه الحارة على خدها.

ـ أوه.. أعرف.. وعلى الأرجح لم يعن لك ذلك شيئاً.. فليس الأمر مهماً للرجل.. فهو يفعلها طوال الوقت.

واشتد ضغط يديه على كتفيها، حتى أنها انكمشت ألماً:

ـ فهمت.. لم أكن مخلصاً لك، صحيح؟

ردت بكبرياء:

ـ تقولها بنفسك.. أجل! ولا تزعج نفسك بالإنكار.. لأنني لن أصدقك.

رفع حاجبيه سخرية:

ـ وكيف توصلت إلى هذه المعرفة؟.. ربما همس بها عصفور صغير في أذنك؟

بعض بقايا حكمة لمعت في رأسها.. لن تستفيد شيئاً لو ورطت كاترينا في الأمر.. سوف تضطر إلى البوح بكل شيء وستعاني كاترينا من النتيجة.. إضافة إلى هذا فكاترينا أظهرت بوادر المودة والصداقة، والسماء وحدها تعرف كم تحتاج دولوريس إلى أي صديق تستطيع الحصول عليه في الأشهر المقبلة. ولمعرفتها بزوجها وإخلاصه لعمله، تعرف أنها ستكون وحدها فترات كثيرة..

التعامل مع عدائية بانيس الجريئة غير المكبوتة يكفيها، ولا تريد أن تظن كاترينا أنها أفشت سرها.. وازداد ضغط أصابع رامون على كتفيها ثم أخذ يهزها:

ـ أخبريني!

حاولت الخلاص من قبضته:

ـ لم يقل لي أحد.. لا حاجة لأحد أن يقول.. فلدي عينان، ولقد استخدمتهما.. أوه. أجل.. أعترف أنهما لم تكونا مفتوحتين جيداً حين جئت بي إلى هنا، كنت حمقاء رومانسية أعيش في شبه دوار.. لكن هذا توقف سريعاً وبدأت أتساءل.. وانتهى تعلقي بك الذي كانت مدته قصيرة جداً.

تركها فجأة، وبارتياح استدارت إلى المرآة مجدداً. لكن حتى في المرآة لم تكن متحررة منه.. وجهه كان منعكساً إلى جانب وجهها، أسمر، قاسي الملامح غاضباً.

ـ وماذا كان الرد على تساؤلك؟

ـ المنطق، فالأشياء لا تتشكل وحدها.. فإذا كنت تفهم ما أعني.

ـ كان لي أم أميركية، وأنا أعرف تماماً مثل هذا الكلام.. أجل.. أعرف ما تعنين لكن أية أشياء؟

قالت متشدقة، ممتلئة ثقة بالنفس:

ـ حين فهمت كل شيء.. وعرفت كيف تفعلون الأشياء هنا في اليونان.. بدأت التفكير.. لماذا تزوجتني؟ سألت نفسي.. ليس لدي «دوطة» ولا عائلة نافذة، ولا يمكن أن أساعدك في الإقلاع بعملك...

ـ ظننت نفسي أنني قلت لك إنني أحببتك.

أجابت بسخرية:

ـ هه..! متى يسمح اليوناني لشيء تافه مثل الحب أن يؤثر عليه في عمله؟ ولماذا أظن أن الحب يمكن أن يؤثر عليك لصالحي وأنا أرى

الطريقة التي تحاول فيها التسلط على ابنتك؟ . . تحاول تزويجها لشاب لا يعجبها ولا تهتم به، لمجرد أغراض تجارية؟ أما بالنسبة لي، أظن أنك اعتقدت أنني بلهاء عاطفية، وأنني لا أرى إلى أين أسير . . إضافة إلى واقع أنني مناسبة جداً، للاستيلاد . . بالطبع . .

ـ ليس لديك دليل . .

قاطعته بشكل هستيري تقريباً:

ـ بلى . . لدي! لقد رأيتك، وتذكر هذا، رأيتك!

ـ رأيتني؟ متى؟ وأين؟

ـ تريد أن تعرف؟ لكنني لن أقول لك . . إنه أمر عليك التفكير به في ساعات الليلة الهادئة . . . ولوحدك في الفراش!

ـ أيتها الحقودة اللعينة!

كان في عينيه شيء كالإعجاب، لكنه اختفى قبل أن تتأكد منه . . وشدها إليه حتى أحست بحرارة جسده.

تمتم وهو يرد ضربة مهددة من فرشاة الشعر:

ـ لكنني لن أكون لوحدي . . فأنت زوجتي دولوريس، وبينما أنت هنا، في منزلي، ستنامين في فراشي . . وتسمينني زوجاً يونانياً، وهذا ما سأكون . . سيد منزلي.

لعقت شفتيها بعد أن جفتا خوفاً:

ـ وهل ستجبرني؟ سأصرخ لأهدم المنزل.

ـ ولن يتدخل أحد . . لن يجرؤ أحد على التدخل. ليس بين رجل وزوجته . . وطالما أنت تعيشين هنا ستكونين زوجتي بكل ما تعنيه الكلمة . . وإذا لم يعجبك هذا، سآخذك إلى كيركيرا، وأشتري لك تذكرة سفر، وأضعك على أول طائرة تعود بك إلى لندن . . وسيبقى الطفل هنا، وستتدبر أمره بطريقة ما . . يانيس ستجد له امرأة مرضعة . . أو أنني سأحصل . .

لم تنتظر أن تسمع ماذا سيحصل عليه . . ذكر اسم يانيس وحده جعلها ترتجف بالغضب:

ـ لا . . لن تفعل! إنه ولدي!

تهاوت دفاعاتها:

ـ حسن جداً، سأبقى، وسنلعب اللعبة كما تريد . . والكثير من السعادة ستحصل من هذه اللعبة!

شدها إليه أكثر:

ـ أوه . . كلانا سيحصل عليها.

وكأرنب منوّم، راقبت وجهه يقترب ليلتقي بوجهها:

ـ اغمضي عينيك إذا كنت لا تطيقين النظر إلي.

سمعت كلماته عبر الرعد العاصف في أذنيها . . وقوّت نفسها بإرادة من فولاذ كي لا تستجيب له . . لم يكن يداعبها، بل كان يعاقبها، كان يؤلمها، ويعرف ما يفعل . . ويبدو أن ما يفعله يعطيه نوع من الاكتفاء غير المرضي.

وبخوف شديد، وجدت نفسها تفكر إلى متى تستطيع الصمود . . أحست أنها ستنهار تحت هجومه البربري . . لكن جزءاً منها كان يحس بالانتصار . . رامون لا زال يريدها . . مجرد رغبة . . وليس حباً . . أو . . خلف جفنيها المطبقتين أحست بلسع الدموع . .

توقف ضغطه عليها لكن يديه استمرتا بالإمساك بها بشدة، ورغماً عنها أحست أن جسدها أخذ يتجاوب . . رفع رأسه، وهزها قليلاً إلى أن فتحت عينيها لتراه، وتمتم:

ـ لقد مضى زمن طويل «كاربنيامو» . . ولا زال التجاوب موجوداً . . أليس كذلك؟ هل نتخلى عن تناول الشاي؟

واشتدت حرارة وجهها. وحين استطاعت أن تقول شيئاً، فوجئت بصوتها، وكان بارداً تماماً بالرغم من أن أنفاسها كانت تتلاشى تقريباً،

وكأنها كانت تسرع في الركض:

ـ لا.. أنا عطشى، وبيتر سيحتاج إلى رضاعة قريباً.. لذا أريد شيئاً أتناوله قبل أن يستيقظ.

بيد ثابتة أبعدت يديه عنها وأكملت إصلاح زينتها في المرآة.

كان يبتسم، وظنت أنها رأت النصر في لمعان عينيه والتواء فمه.. وتمنت لو تستطيع مسح تلك الابتسامة عن وجهه.

ـ لكنك تريدينني يا عزيزتي.

هزت كتفيها وقالت تحوّل الكلمات إلى سخرية مريرة:

ـ وإن يكن؟ الرغبة يجب أن تكون مسيطرة عليّ.. أليس كذلك؟ وماذا كنت تتوقع؟ لقد عشت كراهبة لمدة سنة.. ومن الطبيعي أن أرغب.. لكنني لست مضطرة للاستسلام إلى غريزة بهيمية صرفة.. فأنا إنسان مفكر وعاقل.

واستدارت تواجهه.. متعجبة من سهولة الوقاحة الفجة:

ـ لطالما أحسست بالرغبة في السنة الماضية.. لكنني وجدت لها دواء شافياً.. أصنع فنجان شاي، أتناول قرص أسبرين، وأفكر بهدوء بالرجال، خاصة بمن يحنث بقسم الزواج المقدس بكل رعونة. بعد خمس دقائق من هذا، تذهب الرغبة من نفسي ولا أحس سوى بالقرف.. والآن هل ننزل قبل أن يبرد الشاي؟ لقد تأخرنا بما يكفي!

كانت تعرف أنها أمضت الكثير من الوقت مع بيتر.. فبعد أن أرضعته، وألبسته ثوب نومه، لاعبته.. أصبح الآن يبتسم فعلاً، حتى أنه يضحك سعادة حين تداعب بطنه.. هكذا تأخرت، ولم تخرج ثيابها من حقائبها بعد.

دخل رامون غرفة النوم ليجدها تكمل ارتداء بنطلون بطراز شرقي بحت، من الساتان الأخضر، فوقه «بلوزة» تمتد إلى الأوراك.. فعلق قائلاً:

ـ رائع جداً.. وشعرك بدأ يتحسن.. هل أسرحه لك؟

ـ لا.. شكراً.

وشعرت دولوريس كأن قلبها يرقص طرباً ولكن برهبة لذيذة.. فالحب، الحب الحقيقي لم يمت.. بالإمكان تجاهله، إخفاؤه وراء أبواب موصدة، لكن ما إن تفتح الباب حتى نجده لا زال هناك.. وحبها لرامون حب حقيقي في حياتها، ولن يرحل ويموت.. والأسوأ من كل هذا، أنها تشك في أنه يعرف..

تمتمت:

ـ أرجوك، دعني وحدي.

لكن الفرشاة كانت قد أصبحت في يده، ودفعها بلطف لتجلس، قالت تحتج بخفة:

ـ لقد تأخرنا كفاية.. وأنت تعرف أن..

كانت ستقول: أن يانيس، لكنها غيرت كلمتها:

ـ... أن ايلفيدا تكره أن يجهز الطعام ونحن لم...

تلاشى صوتها حين وضع منشفة حول كتفيها وبدأ يسرح شعرها بضربات طويلة مستوية، كان لها التأثير المنوم عليها.. فارتفع البؤس ليعقد رباطاً ضيقاً حول حنجرتها.. كان الأمر هكذا فيما مضى.. أكان هذا منذ سنة فقط؟ لكنه يبدو عمراً.. فترة طويلة باردة، تاقت فيها إلى لمسة من يده.

سمعت نفسها تثرثر بهستيرية:

ـ لقد أخذت حماماً.. آمل أن يكون لا بأس في هذا.. كنت أنوي أن أسأل إذا كان لدينا ما يكفي من الماء.. لكن في كل مرة أنسى.

عطسة صغيرة من المهد أعادتها إلى حاضرها.. رامون يمكنه أن يسحر الطيور في الأشجار حين يرغب.. ولقد سحرها مرة وتعلمت درسها. وشهقت ثم دفعت يديه عنها وأسرعت إلى ابنها.. ولحق بها

ليقف كلاهما ينظران إلى الصبي.

كان بيتر نائماً، لكن حاجبيه كانا معقودين حتى أنه للحظات تقطع القلب، بدا مثل أبيه.. وقال الأب:

ـ إنه بخير.

دفعته جانباً لتقترب أكثر إلى المهد:

ـ وما أدراك أنت؟ لديه أرياح مغص.. لن أنزل للعشاء، أرسل أحداً بصينية طعام لي.. سأبقى معه.

نظر إلى قدميها الحافيتين، ثم إلى الخف الأخضر البراق قرب السرير:

ـ حمقاء، ضعي حذاءك في قدميك ولنذهب.. لي خبرة أكثر منك مع الأطفال.. أتذكرين؟ وذلك بسبب خبرتي في تربية كاترينا ومع أنها الآن كبيرة ولكنها كانت طفلة يوماً ما، قليل من الريح في بطنه لن يقتله.

بقيت واقفة فوق المهد:

ـ ها! يا لها من خبرة! وكم ترغبون، أنتم الرجال، أن تخدعوا أنفسكم! لقد اقترحت أن تأخذه مني، قبل فطامه! بإمكان بيتر الاستغناء عن خبرتك هذه.. شكراً لك..

قاطعها:

ـ لكنك لا يمكنك الاستغناء عن عشائك.. ولا يمكنك أن تقضي الأشهر القادمة في غرفة النوم هنا معه.. الآن دعيني أرى.. لإيلثيدا حفيدة، نيكول. إنها في الثانية عشرة، لكن لديها خبرة.. أعتقد أن لديها على الأقل خمسة أخوة وأخوات أصغر منها.. سنرسل في طلبها غداً، إذا كانت مناسبة، بإمكانها أن تعتني بالطفل عنك.

ـ ليس قبل أن أراها، فلا تضع الخطط دون استشارتي.. أعرف أن هذه إحدى نزواتك، تلك الرغبة في إدارة حياة الجميع نيابة عنهم.

لكنك لن تدير حياتي، أو حياة بيتر. طفلة في الثانية عشرة.. ! يجب أن تكون في المدرسة!

ـ بإمكان نيكول أن تقرأ وتكتب وتستخدم الآلة الحاسبة في الدكان المحلي.. إنها دائماً تعمل على الصندوق، ولم يتذمر منها أحد.. لقد أنهت مدرستها، وستأتي خلال النهار كي يكون لك فرصة لنفسك.

ربت يدها:

ـ دولوريس.. أتصغين إلي؟

ـ ليس كثيراً!

ـ إذن اسمعي جيداً، والد الفتاة مقعد، وعائلته تحتاج إلى المال، وهم يونانيون متكبرون أكثر من أن يقبلوا الإحسان.

لم يستفق بيتر، فاستدارت عنه:

ـ حسن جداً.. سألقي نظرة عليها، إذا كان هذا ما تريد، لكنني لن..

وضع ذراعه حولها يدفعها نحو الباب:

ـ بالطبع لا.. لكنني أعتقد أنك ستجدينها مرضية، وتتكلم القليل من الإنكليزية.

الستائر السميكة كانت تُبعد النسيم الرطب. وتذكرت دولوريس هذه الستائر، كانت أحد الأشياء التي نفذت فيها ما تريد حين كانت تعيش هنا قبل الآن.. ولقد حصل قليل من الخلاف قبل أن تحصل عليها. لا شيء جسدي أو عنيف.. فيانيس لم تصل إلى هذا الحد.. بل مجرد مقاومة سلبية، كانت أقوى من معركة. لقد أضاعت أكثر من شهر في جدال منطقي قبل أن تطلب هذه الأشياء اللعينة وعلقتها.

كان في المدفئة الحجرية نار مشتعلة.. مع أنوار الشموع على الحمّالة المتعدد الفروع فوق مائدة الطعام، هذا كان كل النور الموجود في غرفة الطعام.. نظرت دولوريس إلى العتمة وهي تدخل الباب،

ومدت يدها إلى المفتاح الذي يسيطر على أنوار السقف.. ضغطته، فشعت الغرفة تحت الأنوار القوية.. هناك شخص آخر على العشاء، وتفحصت الغريب، إنه شاب، صغير جداً بالنسبة ليانيس، لكن كبير جداً لكاترينا.. لكن الفتاة كانت تنظر إليه بتعبير ولهٍ أبله.

***

٤ ـ سأكرهك أكثر

كانت يانيس ترتدي ثوباً من الحرير يشبه القفطان الأغريقي القديم.. وكانت قدماها في «صندال» حديث، نسخة مطابقة للطراز القديم، يتناسب مع الثوب. ردت دولوريس الابتسامة الباردة التي حيتها بها، وفكرت بأن يانيس لا تشبه كثيراً تمثالاً مَن الخزف مرفوعاً عن قاعدته، ولا روح الربيع، ولا أي شيء كهذا.

وصحيح أن كاترينا كسبت بعض المال.. فالثوب الذي كانت ترتديه كان على آخر طراز.. من الكتان الأبيض، قصيراً.. بسيط جداً، ولا شك أنه غالي الثمن، مطرز بألوان زرقاء صغيرة.. وليس بالتأكيد فستان اشترته لها يانيس، أو يمكن أن تشتريه.. كانت ساقا كاترينا لامعتين بجورب من الحرير الصافي، وزادت إبراز طولهما بحذاء عالي الكعبين.

تقدمت دولوريس، تعي وجود زوجها إلى جانبها، وقد ارتاحت يده على خصرها.. وأحست بأصابعه تضغط خصرها بلطف، فابتسمت، بينما قامت ابنة زوجها بالتعارف بكثير من الثقة بالنفس.

ـ صديقي بابا.. «روي وايد».. التقينا في الفندق حيث أعمل.. «روي»، هذا أبي وزوجته.

كانت مفاجأة، وكان يمكن أن تكون أسوأ من هذا.. كان هذا أول انطباع لدولوريس وهي تصافح الشاب. كان يمكن أن يكون «روي»

«هيبياً»، لكنه لم يكن، بل هو شاب أميركي مثالي، من قمة رأسه الأشقر بقصة شعره البحرية حتى حذاءه المطاطي السميك، مع وجه عريض منفتح، دال على الذكاء.. والأكثر، أنه كان ممتلئاً رجولة بقميصه النظيف الأبيض.

لم تستطع دولوريس أن تفهم سبب رعشة الخوف التي مرت على ظهرها كمكعبات الثلج.. إنه بكل تأكيد ليس ولداً. إنه يبدو من قريب أكبر سناً.. وربما هذا هو سبب خشيتها.. نظرت إلى زوجها الذي كان يصافحه دون أن يفصح وجهه عن شيء. لم يكن يبدي انزعاجاً من وجود ضيف إضافي في أول ليلة له في منزله.. لكن رامون يوناني. والضيف والغريب في نظره سواسية، وفي اليونانية نفس الكلمة مستخدمة في وصف الاثنين.

احتفظت يانيس بصمت وقور.. لا شك أنها قلقة حول تأثير هذا كله على عائلة «بابلوفيلوس».. فلا بد أن يصل الخبر إليهم.. وقد يقرروا أن كاترينا ليست زوجة مناسبة لتاكيس.

أبعدت دولوريس عنها هذا القلق خلال العشاء، فلديها ما يكفيها من متاعب. وبعد انتهاء العشاء، أحضرت كاترينا «البوم» صور، ودعتها لتجلس بينها وبين «روي»، تعرضها عليه، تشير إلى تلك التي التقطتها دولوريس.

وقال روي بحماس:

ـ رائعة..! إنها جيدة جداً! لكنك مصورة محترفة سيدتي أليس كذلك؟ أنا أقوم بالتقاط الصور بنفسي، لكنني مجرد هاوي.. لدي آلة تصوير «روليكون» ولكن ما نوع التي عندك؟

سمعت دولوريس نفسها تشرح له عن «كاميرتها» بينما كانت تنظر بلهفة إلى رامون ويانيس مركزة نظرها تماماً على تلك المرأة.. العشاء اليوناني يبقى دائماً مستمراً.. ولقد بقي الجميع حول المائدة أكثر مما

توقعت، ثم قررت أخيراً أنها لن تجرؤ على البقاء أكثر من هذا، فتمتمت معتذرة، وبمصافحة قوية أخرى مع «روي» أسرعت إلى غرفتها لتعطي بيتر عشاءه.

في منتصف الرضعة، سمعت صوت سيارة تغادر حديقة الڤيلا ثم دخل رامون عبر الباب ووقف من فوقها، وقال بابتسامة سعيدة:

ـ لست أدري ما إذا كان يجب أن أعطي هذه الفتاة صفعات مؤلمة على قفاها..

ـ إنها تشبهك.. عنيدة ومصممة على تنفيذ ما تريد.. إنها تحاول أن تظهر لك أنها لم تعد طفلة.

ـ وتوافقين على ذوقها في ذلك الشاب؟

ـ الأذواق مسألة خيار.. وليس لديها خيار واسع، صحيح؟ هذا هو مدرب التزلج على الماء، كما أعتقد؟

ـ أجل.. وأنت لم تردي على سؤالي.

ـ وما الهدف من سؤالك؟

كان بيتر ينام على ذراعها، وكانت متعبة. كل ما تريده هو أن تأخذ طفلها وتتكور معه في جحر مظلم خاص بهما، حيث لا يستطيع أحد الوصول إليهما.. لقد كفاها متاعب ولا تريد التورط في غرام مراهق.. وسألت متوترة:

ـ لماذا تسألني؟ لست خبيرة في الحكم على الرجال.. انظر إلى ما صنعته بحياتي؟

انحنى فوقها يأخذ منها الطفل: أنت متعبة.

شددت من الضغط على الطفل بذراعها محاولة منعه من أخذه منها.

ـ لا.. لا تفعلي هذا، لا تدعينا نتشاجر لأجله.. إنه ابني كما هو ابنك، وأعرف تماماً كيف أضعه في مهده.. اغتسلي وهيئي نفسك

للنوم.

نظرت دولوريس إلى غطاء السرير المطرز يدوياً، وإلى الوسائد المحاطة «بالدانتيل» قبل أن يعود نظرها إلى رأس زوجها الأسود الشعر، وجف فمها، وأحست بلسانها يتضاعف حجماً، ويجعل الكلام من أي نوع مستحيلاً لها. على أي حال، حتى لو تمكنت من إيجاد الكلمات المناسبة، وأخرجتها لتكون مفهومة فالكبرياء كانت تمنعها أن تتوسل.. وتهديده بإعادتها إلى انكلترا وإبقاء الطفل هنا، كان ما زال طازجاً في رأسها.

ليس من الممكن أن يطلق رامون تهديده لو لم يكن يعنيه.. وشيء تافه كدموع امرأة لا تأثير له عليه.. لقد قال إنه سيفعل ما هدد به، ولسوف يفعل.. وهي من أعجبت به منذ أقل من سنتين مضتا، وأعجبت بتصميمه الذي لا يلين!

ابتلعت ريقها خوفاً.. وأخذت حاجات ليلها، وقبعة الحمام، واتجهت إلى الحمام. لم تعد تهتم إذا كان هناك ما يكفي من ماء أم لا.. خلعت ملابسها وعلقت ثوب نومها على علاقة الملابس، ثم أدارت ماء الدوش كاملة حتى أن الرذاذ كان يضرب على قبعتها البلاستيكية بقوة وهي تقف تحته.. المعركة الفاصلة قادمة مع أنها غير مستعدة لها.

وارتجت حلقات الستارة وهو يزيحها ويخطو إلى جانبها تحت الماء، فأوقعت الصابون وحاولت تغطية نفسها بأسفنجة الحمام..

ـ لا تجزعي هكذا «كوريتسي».

وكان صوته مسموعاً بالرغم من انخفاضه، فإنه كان فوق صوت الماء وفوق صوت ضربات قلبها الشديدة.

وشهقت وهو يضمها بين ذراعيه:

ـ لا أريد هذا أبداً.. أبداً.. أبداً..

ـ إذا كان هذا شعورك، كان عليك القبول بعرضي الآخر.. عودتك إلى انكلترا.

وأحست أن لمسة يديه كانت عذاباً لها:

ـ تعرف أنني لا أستطيع.. لا أستطيع.. طفلي..

وأحست باضطراب في تفكيرها وتشويش، وأخذت ترتجف دونما قدرة على السيطرة، مع مزيج من الكراهية والحب.. وكلاهما كان له التأثير نفسه عليها.. يجعلها تضعف وتقنط.

ـ أنت تحبينني دولوريس.. وأنت أم جيدة.. تحبين طفلك وتحبينني.

لم تعد دولوريس قادرة على شرح المشاعر المختلطة التي غشت تفكيرها.. حتى أنها أصبحت مذهولة ورافضة معاً، لرد فعل لمساته في نفسها.

شيء ما، كانت قد أقفلت عليه الأبواب في داخلها، انفجر من مخبئه، وأخذ يهزها بعنف.. فتأوهت:

ـ إنها الرغبة فقط.. ليست حباً.. ولأنه مضى زمن طويل.. سأكره نفسي.. وسأكرهك كذلك.. فيما بعد.

أحست بهزة كتفيه:

ـ الأفضل أن تكرهيني من أن لا تشعري بشيء.

ثم أقفل الماء وتناول المنشفة، مكملاً:

ـ الكراهية ليست سوى الوجه الآخر لعملة واحدة. لكل قطعة وجهان، ولا يمكنك امتلاك وجه دون الآخر.

أحست بدفء المنشفة حولها، ورفعها بلطف من تحت الدوش حيث بدأ يجففها، وأزال قبعة الحمام. قالت تحتج وهو يضع الروب على كتفيها:

ـ ثوب.. نومي!

ـ لن تحتاجي إليه.

لم تستطع النظر إلى عينيه، لكنها عرفت أنه يضحك منها.. فمن السخف منها أن تتصرف مع زوجها هكذا.. لكنها لم تستطع أن تبعد عن رأسها أن هذا رجل مختلف عن الرجل الذي تزوجته، وأنجبت طفلاً منه.. أم أن هذا، ببساطة، الجانب الآخر من العملة المسماة رامون؟

ـ رامون.. الأمر مستحيل لا طائل منه.. ألا ترى هذا؟ لا أستطيع الثقة بك.

ودون وعي منها، عادت صورة الجسدين الملتصقين في الحديقة إلى رأسها.. الطريقة التي ذابا فيها معاً في الظلام، وكأنهما مخلوقان لبعضهما البعض.. إذا كان يشعر بهذا النوع من الحب للمرأة الأخرى، فهي آسفة له.. لأنها تعرف كيف يشعر.. لأنها أحست بنفس إحساسه وكان يمزقها. فلو أنه فقط يشرح أمره لها، يعترف بكل شيء علناً.. ربما ستتمكن من العيش مع الحقيقة.

وستضطر إلى العيش معها.. فهو لن يتخلى عن ابنه، ولن يتركها تأخذه! راقبته يتقدم إليها.. ليقول مؤنباً بلطف:

ـ أنت دائماً تتكلمين كثيراً.

وصدر منه صوت خفيف ينم عن السخط، ثم رفعها بين ذراعيه ليحملها إلى الفراش.

***

كانت الساعة قد تجاوزت التاسعة بكثير حين استيقظت دولوريس لتجد نفسها وحيدة في الفراش.. وجلست تضرب الوسادة لتجعلها مريحة لرأسها.. بعد كل احتجاجاتها، وقسمها أن لا تتعاون معه، لقد كسب رامون المعركة.. وكانت استجابتها له دون قيد.

كانت تحس بعقدة الذنب هذه الخامسة صباحاً حين استيقظ بيتر،

يطالب برضعته.. وفكرت أنه لو كان ما قيل لها صحيحاً، وحالة تفكير الأم تؤثر على الطفل.. فيجب أن يتقلب ابنها الآن ألماً بسبب تفكيرها وآلامها النفسية، ولعدة ساعات إذا لم يكن لليوم كله.. لكنه عاد إلى النوم في مهده دون أن يتحرك.

الطقس لا يبرد كثيراً في «كورفو» لكن حين يأتي تشرين الثاني تصبح السماء معتمة ملبدة بالغيوم.. والطقس الآن، رطب لا شك، لكنه صحي، وما غير هذا متوقع من جزيرة أمطارها مرتفعة والخضرة فيها كثيفة؟

سمعت وقع أقدام تتقدم فوق الأرض الحجرية للشرفة، وانفتحت الأبواب الجرارة، ودخلت ايلڤيدا تحمل صينية.. قالت باختصار:

ـ كالاميرا، كيريا دولوريس.

ثم تحولت إلى انكليزيتها البطيئة الثقيلة اللكنة..

ـ كيريوس رامون ذهب إلى «باكسوس» وعلى الصينية مذكرة لك.. كاترينا استقلت دراجتها النارية إلى «باليوكاستريتسا».

ووضعت الصينية في حضن دولوريس ونظرت إليها منتقدة بعينين سوداوين:

ـ وأنا لم أر بعد الطفل!

ـ أفهارسيتو.. أنا آسفة جداً.. ليوم بولي..

وتعثرت الكلمات على شفتي دولوريس، كل إحساسها بالذنب انصب على تهدئة سخط ايلڤيدا.. إنها امرأة عجوز متزمتة سريعة التأثر والشعور بجرح كرامتها.. وحين تُجرح ينعكس هذا على الطعام.. ويصل الدجاج محروقاً إلى المائدة ولا تقدم سوى السلطة اليونانية: الطماطم المقطعة.

قالت دولوريس لصرف تفكيرها عن الموضوع:

ـ كلمني كيريوس رامون عن نيكول.

راقبتها تنظر إلى المهد وتداعب بيتر بأصابع خشنة، ثم قالت دون تفكير وهي تتفحص الصبي:

ـ نيكول فتاة طيبة.. إنه صبي رائع وكبير لعمره.. سيصبح طويلاً، مثل كيريوس رامون.

كانت دولوريس يائسة من تجذب اهتمام ايلثيدا عن الطفل، فلا تريده أن يستيقظ قبل أن تتناول القهوة والخبز بالسكر الطازج الساخن، فقالت:

ـ إنها صغيرة.

فانتصبت ايلثيدا تنظر إليها بحدة:

ـ نيكول تعرف عن الأطفال أكثر منك كيريا.. ألم تعتني بتربية الصغار في عائلتها؟ أمها مسكينة مريضة.. ونيكول تتولى عنها كل شيء.. حين سألني كيريوس هذا الصباح، قلت له أن يزور منزلهم وهو في طريقه إلى «باليوكاستريتسا» وما إن تصل الفتاة، سآتي بها إليك.. وستكونين قد نهضت من سريرك.

وكانت نظرتها لدولوريس تعبر عن أنها تفكر بالزوجات الشابات اللواتي لا ينهضن من سريرهن قبل الضحى.

لم تذكر ايلثيدا يانيس أبداً، وتجعد جبين دولوريس مقطبة.. وكأن الجميع يتعمد الادعاء بأن يانيس ليست هنا! فهل هذه مؤامرة ما من رامون، الادعاء بأن شيئاً أو شخصاً لا وجود له؟ لا بد أنه عرف بأن دولوريس تعني يانيس حين قالت إنها رأتهما، فليس هناك أحد غيرها.. أم أنها نوع من المؤامرة، كي يتجاهل عقل دولوريس البسيط وجودها وينساها؟

مهما كان الأمر، لم تكن يانيس تلعب اللعبة نفسها.. فبعد ساعتين، نزلت دولوريس إلى الطابق الأسفل، تاركة بيتر نائماً في عهدة الفتاة التي بدت وكأن لا قدرة لها على حمله.. ودخلت يانيس

عبر الشرفة السفلى، وكان وجهها يعبر عن أن لديها شيئاً تقوله، وأنها مصممة على ذلك.

جلست برقة ورشاقة على المقعد الطويل وتخلصت من مقصها وضمة الورود على الطاولة، ثم خلعت قفاز الحديقة:

ـ دولوريس.. عزيزتي! هناك عمل كثير في مثل هذا الوقت من السنة.. تصبح الحديقة كالبرية إذا أهملت، ولو ليوم واحد.

جاء وقع حذاء ايلثيدا «يطقطق» فوق حجارة الأرض في الوقت المناسب.. نظرت دولوريس إلى ساعتها.. إنها الحادية عشرة تماماً.. ووضعت ايلثيدا بحدة صينية قهوة على طاولة منخفضة إلى جانب دولوريس، ثم أحنت رأسها بأدب وبرود إلى يانيس، وركزت اهتمامها حيث كانت تظن أنها ستجد المتاعب:

ـ هل وجدت نيكول مرضية كيريا؟

طريقة سؤالها كانت تتحدى دولوريس أن تقول «لا» وقالت دولوريس تجاملها:

ـ إنها صغيرة جداً.. لكن يبدو أنها تعرف ماذا تفعل، ويبدو أن بيتر أعجب بها، فهو لم يعترض أبداً حين غيرت له.

رفعت ايلثيدا نفسها بوقار، إلى كامل الخمسة أقدام الكاملة:

ـ لا ضرر من أن تكون صغيرة.. يجب أن ترتدي مريولاً.. سأحضره لها.

رقّ قلب دولوريس كثيراً لتلك الفتاة وهي تتذكر ذلك الثوب الذي يكاد يهترىء من الغسيل المتكرر وقد بهت لونه جداً وانكمش حجمه حتى بدا ضيقاً يكاد يعصر جسمها.. لكن عليها أن تكون ديبلوماسية.. فإن ايلثيدا سترد أية محاولة تبدو كالإحسان، وستنتقم بتقديم طعام محروق عند العشاء.

وحاولت دولوريس أن يكون كلامها وكأنها فكرت بالأمر كثيراً:

ـ وبعض الفساتين.. بلون زهري، فأنا أحب هذا اللون، وسيناسبها.. بإمكانك شراء فستان جاهز لها للوقت الحاضر وسنصنع لها بعضاً منها حين أجد قماشاً مناسباً.. أنا أحب اللون الزهري المخطط بالأبيض.

وجاء صوت يانيس هادئاً، لكن بقسوة، يعلو صوت وقع أقدام ايلڤيدا المنسحبة.

ـ ايلڤيدا أصبحت عجوزاً جداً للقيام بالعمل. وكل يوم يصبح طهيها أسوأ.. ليلة أمس كان العشاء مأساة.. السمك كان نيئاً، ولولا الصلصة، لما استطعنا أكله. إنها طريقتها في إظهار استيائها لوجود ضيف إضافي، كما أعتقد، مع أنني أوافقها مشاعرها، فليس من حق كاترينا دعوة أحد على العشاء دون سابق إنذار.. مجرد فتى من الشاطىء! نأمل أن لا تسمع عائلة بابلوڤيلوس بهذا الأمر.. بإمكانهم بسهولة أن يغضبوا من مثل هذا التصرف.. إن عمل كاترينا سيء بمعنى الكلمة.. وفي فندق حيث هي معرضة لكل أنواع التصرفات السيئة، والكلام البذيء من السواح.. لكن هذا! كان يجب أن تقدم له فنجان قهوة ثم تريه طريق الباب! فتيات صغيرات مثل كاترينا ليس لديهن حسن تصرف أو تمييز.. يجب أن تتعلم الاكتفاء بالأصدقاء الذين نختارهم لها.. تاكيس..

فقاطعتها دولوريس ساخرة:

ـ تناولي فنجان قهوة واهدأي، فلقد أوضحت كاترينا رأيها القاطع بتاكيس بابلوڤيلوس.. ولن تقبل به. وبما أنها أصغر من أن تفكر بالزواج، وأصغر من أن تتزوج، فلا أعتقد أن رامون سيجبرها على شيء.. والاتفاق لا زال مبدئياً بكل تأكيد؟

ردت يانيس بصوت أشبه بنوع من صوت البعوض الحاد:

ـ لكنه اتفاق.. وسيكون تاكيس لها زوجاً جيداً. يجب أن تكون

ممتنة لهذا الزواج المميز.. فعائلة بابلوڤيلوس لهم علاقات جيدة، وبإمكان تاكيس أن يختار من بين أفضل عائلات مجتمع أثينا..

فقاطعتها دولوريس ثانية بلهجة لاذعة:

ـ أعجب لماذا لم يفعل؟

تابعت يانيس وكأن دولوريس لم تقاطعها:

ـ... بينما هذا الشاب الأميركي، كبير جداً عليها، ولا تعرف شيئاً عنه.. ولا تعرف حتى إذا كان قادراً على تحمل الزواج، وما إذا كان لديه ما يكفي من مال ليصرف على كاترينا..

انفجرت دولوريس ساخطة:

ـ أووه.. لأجل السماء! ألا يمكنك التفكير بأي شيء سوى الزواج؟ لا أعتقد أن كاترينا تفكر حتى بهذا.. بالنسبة لها هذه مجرد صداقة، أما دعوته إلى هنا، فهي بكل تأكيد أفضل من لقائه من خلف ظهورنا؟ إنها في العمر المناسب تماماً للقاءات السرية.. لذا، وكما أعتقد، لو منعناها من رؤيته، أو حرّمنا عليها دعوته إلى هنا، فهذا ما يجعلها تتحدانا وتصمم أكثر مما مضى.. من الأفضل أن لا نتدخل.. اتركي الأمر لرامون.. إنها ابنته، وهو قادر على إيقافها عند حدها إذا خرجت عنه.

ـ أتمنى لو أنك لا تستخدمين كلمات عويصة، لا أستطيع فهم ما تعنينه إلا بصعوبة، أما بالنسبة لترك الأمر إلى رامون، فهو هذه الأيام لا يفكر سوى بعمله وابنه.

هزت كتفيها بأناقة:

ـ ما إن اكتشف أنك رزقت بصبي، لم يعد أي شيء آخر مهم لديه.. وسافر على الفور، قائلاً إنه سيأتي بالصبي معه.. لم نكن نتوقع رؤيتك على أي حال.

أبقت دولوريس رأسها شامخاً، وعينيها مركزتين على الأفق..

خلف قمم الصخور، وكانت السماء صافية زرقاء.. ومن بين قمتين، استطاعت رؤية البحر حيث يلتقي بالسماء بزرقة قاتمة، رقيقة.

وردت عليها بصوت منخفض خالٍ من الانفعال:

ـ أنت تعنين ذلك «الإذلال» القديم كما أعتقد.. كان من المفروض أن أجبن وأبقى في انكلترا، وأخبىء رأسي عاراً، وأتركه يأخذ طفلي مني؟

فالتمعت عينا يانيس بانفعال شديد:

ـ كان هذا أكثر كرامة لك من أن تفرضي نفسك عليه مرة أخرى.. بعض الناس لم يقرروا بعد ما إذا كان الطفل طفله.

احمرّ وجه دولوريس للإهانة، وأحست بغضبها يتصاعد، وصاحت:

ـ يجب عليهم الانتظار ليروا.. أليس كذلك؟

لكنها سرعان ما استعادت رباطة جأشها ووضعت في صوتها القدر الأكبر من الحقد والكراهية:

ـ لا أظن أنني أهتم كثيراً بمثل هذا الحديث، تيسبيناس.

لقب المرأة غير المتزوجة كان مصدر ألم شديد في نفس المرأة، ولا تحب التركيز عليه.. وأكملت برقة:

ـ أقترح عليك التفكير بشيء آخر تتكلمين عنه.

وجدت يانيس نقطة ضعف دولوريس، ونوت أن تستمر في الضرب عليها دون هوادة:

ـ أوه لا.. هناك الكثير من الكلام في مكان صغير كهذا.. وهو ليس من مصلحة رامون.. وهو الذي أفكر به.. وبالطبع كاترينا.. وجودك هنا قد يضر بزواجها كثيراً.. ويمكن لعائلة بابلوڤيلوس أن تغير رأيها لهذا السبب وحده.. زوجة أب تشجع الفتاة الصغيرة على التصرف بحماقة..

تنهدت دولوريس:

ـ عدت إلى موضوع كاترينا ثانية.. أرجوك، تذكري أن رامون نفسه من سمح لها بالعمل.. ولا أظن أنها تفعل شيئاً سوى خروجها مع رجل آخر، يمكن أن يبعدهم عنها.. دوطتها ستبقي ابنهم في عيش رغيد لما تبقى من عمره.. دولارات أميركية رائعة.. إرث جدتها، كما أعتقد، كله ينتظر في المصرف إلى أن تبلغ الثامنة عشرة!

تم أكملت:

ـ أما بالنسبة لي، بإمكان كاترينا أن تدعو أياً من أصدقائها إلى هنا، ذكراً كان أم أنثى، فلن أهتم.. وسأرحب بهم جميعاً.

همست يانيس ترد كقطة شرسة:

ـ لكن هذا سيدوم إلى أن ترحلي.. بعد أن لا يعود الطفل بحاجة إليك.. سيرسلك رامون ساعتها إلى بلادك.

ثار غضب دولوريس مجدداً:

ـ لن يفعل والجحيم..! هذا طفلي، كما هو طفله.. وإذا كنت تظنين أنني سأتركه في رعاية الرفيقة الحنون، ففكري مرة أخرى! سأراك ميتة قبل أن يحدث هذا، ولن يهمني إذا أخبرت رامون أنني كنت فظة معك.. فأنا سأقول له بنفسي!

كانت لا تزال تحمل فنجان قهوتها، سارت مبتعدة نحو السلم الخارجي الذي يقود إلى الشرفة العليا.. ثم توقفت أمام باب غرفتها.. كان بيتر نائماً والفتاة تتفرج على ملابسها الجديدة.. وبدا السرير وكأنه مكان عرض بضائع.. أجبرت دولوريس نفسها على الابتسام، ودخلت الغرفة نحو الحمام، حيث أقفلت الباب خلفها بهدوء.

وأظهرت لها المرآة صورة تقرب من دولوريس التي كانت منذ سنة مضت، كان على خديها لون زهري، حل مكان الشحوب وعاد اللمعان إلى عينيها. لكن هذا بقية من غضب.. وأخذت تراقب اللون وهو

يشحب، وتزداد قتامة عينيها الرماديتين لتصبح باهتة، التحدي جيد جداً لو كان للمرء نصير.. وهي لا نصير لها!

كانت تعرف جيداً أنها هنا بالإكراه، وبسبب بيتر فقط، لن تعود لتتعفن حتى عمر متقدم في انكلترا.. معاشرة رامون لها لا تعني سوى أنه رجل.. وأنها راغبة، وأنهما في الفراش متفقان.. ولعقت شفتيها الجافتين من الخوف، وابتلعت غصة مرة علقت في حلقها. ثم احتست القهوة الحلوة لتغسل طعم الهزيمة.

كان من الأفضل لها أن تعرف أن زوجها لا يحبها.. وأنه يستغلها طالما وجودها ضروري لبيتر.. لكنها لا تريد لهذا أن يبقى محشوراً في عنقها!

* * *

٥ ـ عملية قتل يومية

كانت عربة الشاطىء هي الأفضل والأسهل لقيادتها.. هذا ما قررته دولوريس وهي تتجه من الڤيلا إلى «كريني».

وخارج المقهى في «ماكريدس» كان هناك الطاولة المعتادة، والمجموعة نفسها من أربعة أو خمسة رجال مسنين يلعبون الورق، حاملين زجاجة من المرطبات لكل منهم تكفيهم طوال بعد الظهر.. بينما يدخنون سكائرهم اليونانية الغريبة المذاق، ويبقون أنظارهم على مجموعة أطفال، يلعبون تحت الطاولة.

المنحنيات الصعبة التي يقشعر لها البدن من لاكونوس نزولاً إلى مركز مخيم حيث تنضم إلى الطريق الرئيسية المتجهة إلى «باليوكاستريتسا» شغلت كل تركيزها، ولم تعطها وقتاً للتفكير.. اليوم، لا وقت لها تضيعه.. فهي ستلتقي رامون الذي كان يتفقد ڤيلاته في باكسوس، وتريد أن تصل في الوقت المحدد.

مضى شهر تقريباً منذ جاء بها وبيتر إلى كورفو.. أربعة أسابيع من الشمس الدافئة اللطيفة، ولكن تخللها دفقات من المطر كانت مؤقتة. كانت أسابيع نعمة لا شائبة فيها.. ولو تأخر رامون قليلاً، ستجد لنفسها مكاناً تجلس فيه لتفكر بوضعها.

أوقفت العربة خارج مقهى مجاور للبحر، مركب النقل لم يصل بعد.. ووضعت وشاحاً على كتفيها، واتجهت نحو مرسى خشبي

قديم، لتجلس على حافته وقدماها متدليتان، تضع عينها على الرأس الجنوبي للخليج الضيق، وهي الجهة التي سيأتي منها زوجها.

زوجها.. قطبت دولوريس حاجبيها بشدة.. منذ تلك الليلة الأولى في الڤيلا لم يلمسها، ولا بدا راغباً في أن يلمسها، ولا مرة واحدة! كان ينام على السرير الضيق في غرفة الملابس.. لكنه على أي حال لم يكن يلازم المنزل كثيراً.. ووجدت نفسها تشتاق إليه.. وبدا أن نوعاً من معركة بثلاث زوايا تتطور بينها وبين ايلڤيدا وبانيس.. وكلها بسبب ايلڤيدا، التي أعلنت وبصوت مرتفع أنها لا تأخذ أوامرها إلا من كيريا دولوريس لـذا فأصغر طلب لبانيس لن يمر إلا بتشاور ودراسة للموضوع وإذا كانت النتيجة لا تتوافق مع ايلڤيدا، أو العكس بالعكس، تصب العجوز غضبها على الطعام.

لم تستطع دولوريس أن تبتعد عن الجدال المستمر.. فلا عذر لها في الابتعاد.. فلقد تولت نيكول أمر الصبي، وكل ما هو متوقع من أمه أن تحضر حين يتعالى صراخه طلباً للطعام! إنها بلطف، لكن بثبات، تبتعد عنه.. وأحست بالعرق يتفصد من جبينها.. بعد بضعة أشهر، سيفطم بيتر.. ثم ماذا؟ إنها لا تعرف، ولا تتجرأ أن تفكر.

وهي مستغرقة في تفكير عميق، فاتها أن ترى المركب وهو يتقدم. حين رفعت نظرها كان هناك ورامون كان يربط الحبال إلى البر.. راقبت دولوريس ذراعيه السمراوين وهو يرمي المرساة من فوق مقدمة مركبه، ثم يربط المقود قبل أن يتجه إلى السياج ويقفز من فوقه إلى البحر، سابحاً بقوة نحوها.. وقد حول الماء شعره إلى قبعة سوداء ملتصقة على رأسه.. وبحركة آلية، فتشت في حقيبة كتفها عن منشفة، وقميص جاف، جاءت بهما إليه.. لا يستطيع العودة إلى الڤيلا بشورت بحر أبيض.

ـ جنكامو!

مد يده السمراء إلى الرصيف الخشبي ورفع نفسه إلى جانبها ينفض عنه قطرات الماء المالح، قبل أن يمسك يدها بلطف:

ـ كيف حال ابني؟

ـ رائع جداً..

وأعطته المنشفة والقميص.. فهنا اليونان، ولا يظهر المرء فيها مشاعره علناً..

سار حافي القدمين إلى جانبها:

ـ وبقية الأسرة؟

ـ كاترينا مشغولة في الفندق. ويبدو أن بيتر التقط قليلاً من الزكام، إنه يئن ويعطس قليلاً. وتظن ايلڤيدا أن السبب أسنانه، وقد ينزعج قليلاً لفترة ما، مع أن الوقت مبكر قليلاً لبروز الأسنان.. جاء روي وايد للعشاء مساء الأمس، لكنك لم تكن موجوداً، ولم توافق ايلڤيدا فأحرقت قطع لحم الغنم و...

سكتت قليلاً، ثم أكملت ببطء:

ـ ... وسافرت بانيس إلى أثينا صباح الأمس.

ـ هكذا تناولت العشاء أنت وكاترينا مع مدرب التزلج وحدكما؟

كان قد وصلا العربة، وأصعدها رامون إلى المقعد الثاني وصعد وراء المقود، ثم استدار إليها، بحاجبه المرفوع انفعالاً.. بقيت دولوريس هادئة، وتمكنت من السخرية المرحة:

ـ إذا كنت تدعو الأمر هكذا، فلن أفعل أنا كما تفعل.. فلقد جعلت ايلڤيدا نيكول تقدم الطعام على الشرفة، بينما وقفت تحت أحد القناطر وكأنها الساحرة السوداء.. تهمهم! ولا تسألني ما كانت تقول، فكله كان باليونانية، لكنه بدا مليئاً بالشر، وهي قطعاً لم تكن موافقة، وأحرقت قطع لحم الغنم.. بعد العشاء عادت إلى المطبخ، وأعتقد أنها غرزت دبوساً في صورة شمعية له! لكنني أعرف شيئاً واحداً،

كاترينا ستتركه، كما قلت إنها ستفعل.

ضحك رامون:

ـ هل سوف تقولين «لقد قلت لك هذا».. وتمدي لسانك لي؟

رفعت أنفها تنظر إليه من خلفه:

ـ لست سيئة الخلق إلى هذا الحد.

لطالما تصرف روي بشكل جيد، لكن كلما تعرفت إليه أكثر، كلما قلقت أكثر.. فبالرغم من مظهره الشاب، كانت تشك في أنه أكبر سناً.. ولقد أكدت يانيس هذه النظرة، فهي الحكم الأمثل وعيناها لا تغفلان عن شيء. وهناك أمر آخر.. لقد قال روي إنه يستخدم كاميرا «روليكون» لالتقاط الصور، لكن هذا غير معقول.. فالروليكون كاميرا ثقيلة لا تصلح لالتقاط الصور السريعة ولا تثبت يدوياً.

هزت رأسها لتخلصه من أفكارها، وأرغمت نفسها على الاهتمام بما يقوله رامون.

ـ ومن هو الصديق الجديد؟ أفترض وجود أحد؟

سقط فكها دهشة:

ـ وهل ستسمح بهذا؟ ظننت مستقبلها مخططاً له.. صديقات فقط من الآن وصاعداً.

ـ وهل أستطيع منعها؟

أشرق وجهها بسرعة:

ـ حسناً.. لست واثقة، لكنني أعتقد أنه ابن الزوجين اللذين استأجرا الڤيلا قرب «ياجي». إنها عائلة يونانية تعيش في انكلترا.. ألم تقل ان لديهم مطاعم في لندن؟ الشاب في الثامنة عشرة أو التاسعة عشرة.. ولقد تخلت عن الفطور لتسرع إلى هناك مبكرة هذا الصباح على دراجتها الهوائية، تحمل علبة مليئة بالمصابيح الكهربائية.

فضحك وقال:

ـ أرجو أن لا تكسر الكثير من تلك المصابيح.

ـ وعائلة «بابلوڤيلوس»؟ هل سيكون هناك متاعب في هذا الاتجاه؟ أيمكن أن يلغوا الاتفاق؟ أترى.. كاترينا شديدة الحيوية، وقوية الإرادة..

وارتفعت يده عن المقود ليربت على كتفها معاتباً:

ـ جينكامو.. اعتني بابنك وزوجك واتركيني أتعامل مع ابنتي.. أهذا كل ما حدث في غيابي؟

ـ تقريباً.. قمت بزيارة سريعة إلى كورڤو، وأطلب منك المسامحة، كان يجب أن أقول «كيركيرا»، لأتسوق لكنني لم أشتر كثيراً.. فأربع ساعات وقت محدود.

ولم تقل له شيئاً عن زيارتها للقنصلية الإنكليزية هناك وعن تأكيد الشاب المسؤول لها أن ابنها يحمل جنسية مزدوجة، وأن كل ما تحتاجه هو موافقة الأب ليرافقها بيتر إلى حيث تشاء... ما الفائدة من التجربة وكل شيء ضدها؟ حتى أنها لا تملك جواز سفرها، فلقد أخذه رامون حين وصلا من أثينا ولم تره منذ ذلك الوقت.. من المستحيل أن يكتب لها إذناً بمرافقة بيتر إلى أي مكان.

استغرقت دولوريس يومين للتغلب على سخطها، ولتقبل ما بدا أنه الأمر المحتم، وحتى هذا تقبلته على مضض، مصممة أن تكون صعبة المراس قدر المستطاع.. مع ذلك فها هي تسرع بكل خضوع لتأتي بزوجها من الميناء، وتتحادث معه بكل سهولة تظهر له انها كالزوجة اليونانية التابعة.. كل هذا لأنها إذا لم تفعل هذا، ستخسر ابنها إلى الأبد!

لم تستعجل الاستعداد للعشاء ذلك المساء.. أرضعت ابنها في السابعة واستغلت وقتها وهي ترضعه، محاولة تجاهل رامون وهو يروح ويجيء في طريقه إلى الحمام ومنه ليبحث بين ملابسه.. وأدارت

ظهرها له وهو يرتدي ويمشط شعره بعد الحمام.

قال لها بعد أن انتهى، وتقدم يقف قربها يراقبها:

ـ ستتأخرين.. وايلفيدا حضرت لنا الموساكا.

ردت بحدة:

ـ اليوم السبت، وايلفيدا دائماً تقدم الموساكا يوم السبت.. إنه الشيء الوحيد الذي لا تحرقه تقريباً، حتى ولو كانت متكدرة.. على أي حال بيتر أولاً.. أم تريدني ترك المائدة وأنا في منتصف الوجبة لأنه يصرخ؟

ـ لا تكوني حمقاء دولوريس، وتوقفي عن الظن بأنني أحمق. بإمكانك أن تسرعي حين يناسبك الأمر.. ويبدو أنه الليلة لا يناسبك.. ولسبب خاص بك.. أنت تتعمدين البطء.. لقد أنهيت إطعامه منذ أكثر من عشر دقائق، وأنت تجلسين تحتضنيه منذ ذلك الوقت.

فأجابت بغضب:

ـ إنه يحب الاحتضان.. فالأطفال بحاجة إلى أكثر من الطعام، وتعرف أنت هذا. إنهم يحتاجون الحب.. لماذا، في العصور القديمة، لم يكن الطفل يغادر ذراعي أمه؟

ـ أنت تقولين أسخف الأشياء. تلك لم تكن حباً بقدر ما كانت غريزة لحمايته. ضعيه في مهده، وارتدي ملابسك، وانزلي لتناول العشاء.

قالت دولوريس توجه كلامها إلى بيتر النائم:

ـ والدك في مزاج آمر.. لكن متى لم يكن هكذا؟ كما أنه لا يهتم بأن لديك بعض الرشح، وصدرك كأنه مليء بأوراق شجر جافة.. إنه لا يدرك..

وضع يده على كتفها، وهزها بلطف:

ـ أدرك أنك تماطلين.. ما بالك «كارتيد»؟ هل أنت خائفة من مواجهة وجهاً لوجه معي؟ لا داعي لهذا، كاترينا موجودة هنا، ألا تسمعين آلة «الهاي فاي» تعمل بأعلى صوتها؟ لا يمكن أن يكون الصبي مريضاً وهو نائم بالرغم من هذا الصوت المرتفع.. هيا.. اسرعي!

على مضض، وضعت دولوريس الطفل من يدها بحذر كي لا توقظه ثم رفعت قامتها تقضم ظفرها مفكرة بصوت مرتفع:

ـ الآن، ماذا سألبس؟ فستان الساتان مع التاج، أم بنطلون جينز وقميص.. أوه.. اذهب! لن أتأخر في النزول وراءك.

لكن، ما إن أقفل الباب وراءه حتى أحست برغبة في البكاء.. رامون في مزاج جيد، ولا شك أنها أفسدت له هذا المزاج.. لماذا يتملكها هذا التهور المدمر لإفساد الأشياء مرات ومرات؟ لو أنها فقط لم تعرف الحقيقة عنه، لكانت سعيدة جداً وهي تعيش في جنتها الوارفة.

مع كل هذا، حين دخلت غرفة الطعام الملحقة بغرفة الجلوس، بدت هادئة، أو هكذا قالت لها المرآة.. قالت لها بضعة أشياء أخرى أيضاً.. قالت إنها تزداد وزناً، وهذا ما تحتاجه كثيراً، وإن شعرها كذلك يبدو أفضل. إنه لم يستعد لونه تماماً، لكن اللمعان المشمشي الذهبي كان يعود إليه، والاسمرار الخفيف عاد إلى ذراعيها وساقيها، ويبرز كل هذا أكثر مع الفستان الأبيض الكتاني، والصندال المرتفع الكعبين.

استدار رامون لدى دخولها، وفي عينيه لمعان دافيء معجب.. يلاحظ فيها كل شيء، حتى «الغمازة» التي كانت في العام المنصرم مجرد شق خفيف في خد نحيل، أصبحت الآن بارزة. ومد لها يده بإناء فيه عصير:

ـ ما يفتح الشهية حبيبتي!

بطريقة ما كلمة التحبب الإنكليزية هذه المرة بدت ذات مغزى وهي تخرج من شفتيه.. وكان على دولوريس أن تقوي إرادتها لكي لا تظهر على وجهها السعادة. هزت رأسها ببرود:

ـ لا أريد عصيراً، كوب تونيك أو صودا أرجوك.. بيتر لا يحب عصير البرتقال حين أشربه.. يسبب له المغص.

ولاحظت دولوريس من زاوية عينها أن كاترينا رفعت رأسها عابسة الوجه عن المجلة التي كانت تقرأها، إن ابنة رامون حزمة من المتناقضات.. في دقيقة هي لطيفة، تساعد وتعاون. وفي التالية تغوص في عبوس دون أن يصدر عنها كلمة ود واحدة.. صحيح أنه لا يبدو عليها الآن أي شيء، لكن دولوريس أحست بعدم تجاوبها معها، وحاولت إبعاد نفسها عن السبب. على الأرجح تعاني كاترينا من بقايا ضمير مذنب.. ربما حين تتذكر ما حدث بينهما في كوخ الشاطىء والولد المدعو انطونيوس..

تمنت لو أن هناك طريقة لطمأنة الفتاة، فمن المؤسف أنهما لم يتمكنا حتى الآن من مصارحة بعضهما بما في نفسيهما، والتفريج عما في صدريهما..

صبت دولوريس لنفسها حساء خضار طازجة مع «الموساكا» وانشغلت بهما.. لم يكن الطعام محروقاً هذه المرة وكان لذيذاً، وهذا يعبر كثيراً عن مزاج ايلفيدا.. وبالتدريج بدأت تفتقد أجزاء من الحديث الدائر بين رامون وابنته.. وما إن كانت في منتصف تناولها للطبق الثاني، حتى افتقدته كله.. إرضاع طفل كبير مثل بيتر، منفتح الشهية، هو بحد ذاته مدعاة للجوع، وعندما تكون ايلفيدا في مزاج رائق، تقدم طعاماً لذيذاً.. لذا كان زعيق كاترينا الحاد وقولها لأبيها:

ـ أنت لن تذهب إلى أثينا دوني!

كان مدعاة لالتهاء دولوريس عن طعامها وأفسد عليها تلذذها

بالطبق الثاني تماماً.. توقفت دولوريس والشوكة في منتصف الطريق إلى فمها، لترفع رأسها تصغي لما يقال.

قال رامون:

ـ سنذهب إلى أثينا.. دولوريس وأنا، وبالطبع بيتر.. وربما نأخذ معنا نيكول.. هذا أمر تقرره دولوريس.. فالطقس أكثر جفافاً هناك، والرطوبة هنا تقلق دولوريس بالنسبة لصدر بيتر.. وسنعود في الوقت المناسب لعيد الميلاد.

سألت كاترينا بعدوانية:

ـ لماذا نيكول؟ بإمكاني القيام بأي شيء تقوم به نيكول، وهذا سيعطيني الفرصة لأتسوق قليلاً.. لقد كسبت مبلغاً محترماً من المال. وما نفع المال هنا؟ إضافة إلى هذا، ايلفيدا تتذمر دائماً من عدم وجود فرصة لها لتنظيف الفيلا كاملة.. إذا ذهبت معكما، سيكون معها نيكول لتساعدها.

وافقت دولوريس على طريقة تصرفه مع كاترينا، وأعجبها جدال الفتاة المنطقي الناضج.. وأكمل رامون يرد عليها:

ـ فكرة جيدة.. لكنها تعتمد على شيئين: أولاً دولوريس، هل تعتبرك مناسبة لتحلي مكان نيكول؟ ثانياً، ماذا عن عملك؟ لقد ثرت إلى أن أعطيتك الإذن لتعملي.

ـ سآخذ إجازة قصيرة.. ألا أستطيع؟

كانت تقاتل لتحصل على ما تريد، رأسها مرفوع، ذقنها ثابت، وعيناها تلمعان بالعزم والتصميم:

ـ أنا أعمل دون توقف منذ نيسان.. ولن يكون هناك مشكلة في متابعة عملي بعد أن أعود.. مدير الفندق كان يقول بالأمس إنني أفضل عاملة استقبال كانت لهم.. وكنت سأطلب منه إجازة قصيرة على أي حال.

ـ دولوريس.

لمس رامون يدها المرتاحة على الطاولة، فتظاهرت بالخروج من حلمها، وأعادت شوكتها المليئة بالطعام إلى مكانها. كانت ترغب أن ترميها رمياً، لكن هذا لا يفيد.. سيكتشف بهذا أنها تغلي غضباً.. أثينا..! يانيس في أثينا! يالله، ألا يمكنه الاستغناء عن رؤية تلك المرأة لأقل من أسبوع؟ أيجب أن يجري خلفها إلى كل مكان؟

ـ همم؟ آسفة، لم أكن مصغية.

ـ سنذهب إلى أثينا.. وتريد كاترينا أن تعرف ما إذا كان بإمكانها المجيء معنا بدلاً من نيكول.

قالت كاترينا: أي شيء تفعله نيكول أستطيع أنا فعله، وبيتر يحبني.

كانت لهجتها تتحداها أن تعترض، ووجدت دولوريس نفسها تضعف.

ـ يبدو أن لا بأس بالنسبة لي.

هز رامون رأسه وكأن كل شيء قد انتهى.

ـ جيد.. سنقيم في منزل يانيس، سأطلب منها المفاتيح حين تعود في الغد.

رفعت دولوريس حاجبين متساءلين.. فأكمل:

ـ ألم تكوني تعرفين أنها ستعود قريباً هكذا؟ لقد ذهبت فقط لتقص شعرها.

تمتمت ساخرة، آملة أن لا تسمعها كاترينا:

ـ وكيف تتوقع مني أن أعرف شيئاً كهذا؟ فدماغي يعجز عن التفكير بقصة شعر تشمل أجرة السفر بالطائرة.

عبر الطاولة التي تفصلهما كانت تشعر كثيراً بتمنيات كاترينا المكبوتة.. وفكرت بسخرية ما إذا كان هذا ما يشعر به المرء حين

تستجاب له صلاة يائسة. أكملت كلامها بصوت مرتفع:

ـ بالطبع يمكن لكاترينا أن تأتي معنا.. سيكون هذا رائعاً.. فهي تعرف أثينا.. وإذا كنت متعاوناً قليلاً وجالست الطفل عنا، ستتمكن من أن تريني أين توجد أفضل المحلات.

رفع حاجبه:

ـ وهل تنوين إنفاق الكثير من المال؟

ـ لا.

أكملت تناول ما في طبقها ووضعته في فمها، ثم مضغته مفكرة. حين فرغ فمها، مالت إلى الوراء متنهدة براحة وهي تشعر بالاكتفاء:

ـ ليس أكثر مما تستطيع تحمله، بضع أشياء لبيتر، وهدايا لعيد الميلاد.. لدي بقية من مال.. وسأعطيك شيكاً لتغطية أي شيء أنفقه على نفسي.

بكثير من الرضى، راقبت الغضب يلتمع في عينيه، وانفتحت فتحتا أنفه، واشتد فمه ليصبح خطاً رفيعاً مستقيماً.

الساعتان التاليتان للعشاء كان يسودهما الهدوء.. كان لدى كاترينا عدة أفلام ڤيديو، وبما أن ذوقها يميل إلى أفلام الحركة، والرعب والمغامرات الفضائية، فقد جلس الجميع يتفرجون على فيلم كامل لمغامرة فضائية.. لكن دولوريس استغلت العتمة والوقت لتفكر.

كيف يجرؤ رامون على وضعها في منزل، استخدمه ويانيس كعش غرام خلال رحلاتهما إلى أثينا؟ بالنسبة لها، هذا كله يظهر كم ينقصه من المبادىء الخلقية.. لا يمكنها أن تفكر بشيء مهين أكثر.

دخل رامون غرفة النوم وهي تعيد بيتر إلى مهده، وتلف الأغطية حوله.. أمرته زاجرة:

ـ هس! إنه ما زال مضطرباً في نومه، ومضى وقت طويل إلى أن أقنعته بالنوم.. فلا تجرؤ على إحداث صوت واحد.

قطب واستقرت عيناه الحزينتان على وجهها:

ـ كل الاهتمام بابننا ولا شيء لي. جينكامو.. أظن أنك أصبحت أماً مهووسة، دون تفكير لها سوى بابنها.

ردت بحدة، لكن بصوت منخفض:

ـ بيتر ابني.. لكنه طفل.. وهو سبب وجودي هنا، أليس كذلك؟ لا أستطيع التفكير بسبب آخر. أنت لا تحبني وأنا لا...

فرد عليها بنفس اللهجة:

ـ لكنك أخبرتني قصة مختلفة أول ليلة وصلنا إلى هنا.. ليس بالكلمات طبعاً، لكن، كما تقولون أنتم الإنكليز: الأفعال تغني عن الكلمات.

احمر وجه دولوريس، وتمسكت بشيء من الحنكة الزائفة.. جعلت قولها يبدو وكأنه بغير اهتمام:

ـ أوه.. تلك الليلة.. أخبرتك لماذا.. أم أنني لم أفعل؟ كنت أنوي بالتأكيد أن أخبرك.. مع أنك، بكل خبرتك، لا تحتاج لأن أقول لك شيئاً.. لقد مرّ علي زمن طويل، وأنا على عكسك، أنا لم، ولن، أقيم علاقات خارج إطار الزواج.. ربما لو فعلت، لما وجدتني سهلة إلى هذه الدرجة.

ورفعت ذقنها متحدية:

ـ وسأتأكد من أنني لن أصل إلى مثل هذه الدرجة مرة أخرى.

للحظة ظنت أنه سيضربها، بدا غاضباً بشدة.. لكنه عاد فتلاشى الغضب عن وجهه لتحل السخرية مكانه:

ـ كيف تقترحين حل المسألة عزيزتي؟ قلت إنك لن تقيمي علاقة خارج الزواج، وأنا ليس في نيتي أن أطلقك.. هل ستكسرين عادتك وتتخذين لنفسك عشيقاً، أم أنك ستقنعين بقسم العصمة والطهارة؟ أنت.. كم عمرك؟ خمسة وعشرون؟ بقية حياتك طويلة وطويلة

جداً.. ولا أظنك قادرة على الصمود أمام رجل مصمم..

فأجابت بتحفظ:

ـ أتسمح أن نغير الموضوع؟ لا أظنني أهتم بمثل هذا الحديث.

ـ لكنني أنا.. أهتم..

وضع يديه على كتفيها وأدارها لتواجهه:

ـ وسنسوي الأمر الآن.

ـ لا.. لن نفعل هذا!

كان من الصعب عليها مقاومة يديه القويتين في مواجهة قوتها الضئيلة.. لكنها وقفت متصلبة ونظرت إليه بعينين متحجرتين.

ـ ليس على طريقتك رامون.. أنا هنا بسبب بيتر، ولم أطلب المجيء، ولا أردته. وأنا أفهم تماماً أنني حين لا يعود وجودي مطلوباً، سأرسل إلى بلادي.

قررت فوراً نوعاً من القرارات كانت تجد نفسها دائماً تندم عليها فيما بعد، كاليوم الذي تزوجته فيه:

ـ لقد تزوجتني لتحصل على ابن.. حسناً.. لقد حصلت عليه.. لكن، سأفعل كل ما في جهدي لأعيده معي حين أذهب.. سأكذب، وأغش، لو اضطررت، لكنني سأحاول! أما الآن، إذا كنت لا تمانع.. أنا متعبة جداً..

لم يكن ما تشعر به مجرد تعب، إنه إرهاق، وربما يبدو عليها هذا.. متعبة حتى الموت، ومكشوفة كأرض منبسطة.. ربما ما كان عليها أن تحذر رامون بالنسبة لنواياها، فهو من الآن وصاعداً سيكون حذراً، مما سيجعل كل شيء أصعب بكثير. لكن فات الأوان الآن، كما هو دائماً حين تتسرع، ثم تندم. شدت الأغطية إلى الوراء واندست بينها، ثم استدارت عنه لتدفن وجهها في الوسادة.

أحست الآن بالبؤس الذي أحست به بعد ولادة بيتر. نوع من

العجز المتعب، صرف الأطباء عنه النظر على أساس أنه اكتئاب ما بعد الولادة، ولا فائدة من التمني «لو أنني فقط..» فهذا ما يجعل الأمر أسوأ.

جاء صوت رامون بلطف بعد أن أطفأ المصباح الصغير قرب السرير، واندس قربها في الفراش، دون أن يلمسها:

ـ أظن أننا نقتل بعضنا كل يوم قليلاً.

استلقت في الظلام متكورة وكأنها كرة صغيرة تكور نفسها بكل استطاعتها.. باردة تعيسة، إلى أن لم تعد قادرة على كبح جماح دموعها التي تجمعت مؤلمة، خلف جفونها.. وتجمعت.. ثم انسكبت تجري على وجهها لتبلل الوسادة.. لم تنشج.. حين انتهى البكاء منها، أغفت وطعم الدموع في فمها.

في وقت ما من الفجر الزائف الرمادي النور، تحركت.. تفتح عينيها نصف فتحة.. ثم عادت تستقر في ارتياح ونعاس.. الدموع التي ذرفتها لا شك كانت بمثابة صمام أمان... فقد أحست كأنها بكت كل جرحها ومرارتها، وأنها ارتاحت وأن الاكتئاب قد زال عنها.. وفي وقت ما، من الآن وصاعداً، لن يكون لها أمس، ولا غد.. لأن الأول من الأفضل أن تنساه.. والآخر لن تتحمل التفكير به.

عرفت في تلك اللحظة أن مستقبلها ضيق الأفق جيداً. فإذا منعها رامون من أخذ بيتر معها، فستبقى إذن معه، وستصر على هذا.. إنه ليس بالرجل الظالم، وليس ذنبه أن حبه لها كان أقل من القديم، وهو يحبها بطريقة ما. أوه.. يا الله! وابتسمت لنفسها، ها قد بدأت تفكر مجدداً برومانسية القصص المنفوخة ذلك النوع الذي يُبكي العوانس!

في وقت ما خلال الليل، حررت نفسها من عزلتها الباردة.. دفء رامون كان يلاصقها، وأحست بثقل ذراعه على جسدها. ابتسامتها الملتوية أصبحت حزينة: حين يتوقف الدماغ عن العمل تتولى

الأحاسيس السيطرة.. لو استدارت الآن فسترى وجهه، ولطالما بدا أصغر سناً، وأكثر ضعفاً وهو نائم.. إنه إغراء.. لكنها قاومته.. بيتر لم يستفق بعد، ولديها على الأقل ساعة أخرى قبل أن يستيقظ.. أغمضت عينيها مسترخية، فأحست بثقل الذراع الدافئة يشتد حولها.

إنه إحساس جيد جداً.. جداً!

* * *

٦ ـ تريد ناره

صب رامون فنجان شاي لنفسه من صينية دولوريس، وجلس على طرف السرير:

ـ إذا كنت لا تريدين الذهاب إلى أثينا، فسنذهب إلى رودس.. لدي أعمال هناك أيضاً.. فهل لديك ما تفضلينه؟

ارتشفت من فنجانها، وفكرت كم أنها تشعر بالمرارة:

ـ ألا يمكنك أن تجد عملاً في جبل طارق؟

ضحك ساخراً:

ـ أستطيع، لكنني لن أفعل.. أرفض أن آخذك إلى أي مكان يمكنك فيه التلويح بجواز سفرك الجميل تحت علم بلادك. فأنا لا أثق بك جينكامو.. ستحاولين سرقة ابني مني. أحياناً أظنك تنسين أنه ابني أيضاً.. إنه بحاجة لك الآن، أما فيما بعد فسيحتاجني أنا.. والمرأة كما هو معروف تعجز عن أن تكون أماً وأبا لطفلها.

تنهدت بأسف ساخر:

ـ معك حق في هذا.. فلا أعرف شيئاً عن كرة القدم أو الكريكت.. لكن..

قطبت جبينها وهي تنظر إليه من فوق حافة فنجان الشاي:

ـ الكثير من النساء يعرفن هذا، ويتمكن من تدبير أمورهن. أمك مثلاً.. لقد أخبرتني مرة أن والدك مات وأنت طفل.. وأن أمك...

ـ لقد فعلت أفضل ما بمقدورها.. لكنها بقيت دائماً تتمنى لو أنه عاش.. وكانت تقول هذا، وغالباً ما كانت تقول لأنال منه الضرب الذي أستحقه.. فأمي لم تستطع يوماً أن تمسك بي. وأنا أيضاً افتقدته، مع أنني لم أعرفه.. هناك أشياء لا يستطيع الصبي قولها سوى لأبيه.

ابتسم لها ابتسامة تأنيب من زوايا فمه ثم ضغط يدها التي كانت على الفراش. أكمل بلطف، حتى أن معنى كلامه لم يصلها فوراً:

ـ شيء آخر.. أحب أن يكون لبيتر أخ أو أخت قريباً.. الطفل الوحيد يشعر بالوحشة كثيراً.. أذكر أنني كنت هكذا.. وأظن أن الفترة الفاصلة بين أولادنا يجب أن تكون قصيرة قدر الإمكان.. ليس أكثر من سنتين.. هكذا لن ينظر الأكبر إلى الأصغر كمنافس له أو متطفل على حياته.

أخفت دولوريس شهقتها بسعال. ونظرت إلى يديهما.. يده قوية بنية لشدة تعرضها للشمس، بينما يدها أصغر حجماً، وأكثر بياضاً ولا مقارنة بينهما.. ثم تمتمت:

ـ للحصول على هذا.. تحتاج إلى تعاون.. و.. لا أعتقد أنني قادرة على توفير مثل هذا التعاون لك.. والأمر كله يبدو لي وكأنه.. وحشي!

ـ وحشي؟

ابتسم مجدداً وظنت أن ابتسامته زائفة:

ـ أوه لا.. أغابي.. أؤكد لك أن شيئاً من هذا لن يحدث ولأبرهن لك..

ترك يدها ليمسك وجهها في راحتيه، يمنع احتجاجها.

أشياء كثيرة أشبه بالجنون أثرت بها.. رائحة عطر الحلاقة.. الإحساس بدفء يديه.. وأحست بضربات قلبه على صدرها وهو يضمها، تتجاوب مع ضربات قلبها التي كانت تضرب بعنف، في وقت

كانت هناك مشاعر شديدة في داخلها تلح عليها بإصرار وتتفجر في داخلها.. فتغرقها في بحر من السعادة عميق الأغوار. وحده صوت كاترينا المتصاعد، مع فتح الباب الذي لم تسمعه، رغم علوه والذي أشعرها بخيبة الأمل، هو الذي تمكن من إعادة دولوريس إلى حاضرها.

ـ لماذا عدلت عن الذهاب إلى أثينا؟

استعاد رامون رباطة جأشه.. أما دولوريس فقد كانت بحاجة إلى أن تسبح وتسبح لتصل إلى السطح لكنه كان قد سبقها وجلس، مستوياً، بارداً:

ـ وماذا عن أثينا؟

حتى أنه لم يكن يتنفس بصعوبة.

كان وجه كاترينا متجهماً متقلصاً بخيبة الأمل:

ـ رأيت ايلڤيدا لتوي.. وقالت إنك أخبرتها أنك قد لا تذهب إلى هناك.. بابا، لقد وعدتني...

كافحت دولوريس لتسيطر على نفسها وعلى صوتها:

ـ إنها غلطتي.. كنت أحاول إقناع أبيك أن يأخذنا إلى جبل طارق بدلاً من أثينا.. لكنه قال إن لا عمل له في جبل طارق.. لذا ستكون الرحلة إما إلى أثينا أو إلى رودس.. فأيهما تفضلين؟

ردت بإصرار: أثينا!

إن إصرارها شديد، لكن من يلومها؟ لقد عملت جاهدة منذ نيسان، ولا شك أنها في نهاية صبرها.. التعامل مع السواح ليس عملاً تحبه دولوريس شخصياً..

سألت كاترينا مجدداً: ستذهب؟

رد رامون باختصار:

ـ أجل.. ثم.. لطفاً.. اقرعي الباب في المستقبل قبل دخولك

كالعاصفة.

ردت ابنته ساخطة:

ـ لقد قرعته.

رمت الكلمات من فوق كتفها وهي تخرج مسرعة لتصل السلم.. وتابع رامون كلامه وكأنهما لم ينشغلا بهذه المقاطعة.

ـ هكذا ترين «آغابي» ليس هناك من وحشية أبداً.. ولا أظن أن هذا يمكن أن يكون بيننا.. لن أستعجلك.. سنبدأ من جديد، منذ البداية.

كان وكأنه يلفظ حكماً قضائياً.. وراقبته وهو يختفي عبر الباب، يحمل صينية الشاي.. من السهل جداً الموافقة معه، بقول نعم.. لكنها كطفل حرقته النار، كانت لا تزال حذرة، خائفة من أن تقترب منه مرة أخرى، كي لا تحترق مجدداً، فهي لم تشفَ تماماً بعد من الحروق السابقة.. فهل سيفهم هذا لو أنها حاولت أن تشرحه له؟

بنظرة سريعة إلى ساعتها، ثم إلى المهد، وآهة كرب مؤلم، قفزت تخرج من السرير.. بعد وقت قصير ستحضر نيكول، فالساعة تقارب التاسعة.. في الطابق الأسفل ستكون ايلڤيدا قد حضرت الخبز بالسكر الطازج، والقهوة..

اغتسلت بسرعة، وارتدت بنطلون جينز وتي شيرت ولفت وشاحاً من الصوف الخفيف حول كتفيها اتقاء لبرد الصباح.. وسرحت شعرها بسرعة، وتركته منسدلاً، لتسرع إلى الطابق الأسفل.

وصلت يانيس قبل الغداء بقليل، بابتسامة حلوة وقبلة لكاترينا، ونظرة إلى رامون تقول بصراحة: أرجو أن تكون قد اشتقت إليّ كما اشتقت إليك.. ثم هزة رأس خفيفة باتجاه دولوريس، ولم يكن شعرها يبدو مختلفاً أبداً.

وأسرعت إلى غرفتها، مقاطعة حديث كاترينا:

ـ يجب أن أغير ملابسي، عزيزتي.. فالسفر يجعل المرء متسخاً.

أخبريني بكل شيء بعد الغداء.

وهذا ما فعلته كاترينا:

ـ بابا سيأخذ «دولي» ويبتر إلى أثينا.. لديه عمل هناك وتقول «دولي» إنني أستطيع الذهاب معهما بدلاً من نيكول.

ردت يانيس بلطف:

ـ أوه! يا للإحراج.. لقد التقيت عائلة بابلوڤيلوس وأنا هناك، وأخذوني إلى العشاء.. ورددت لهم الدعوة بأن طلبت منهم العشاء هنا هذا الأسبوع.. فإذا كان والدك ينوي الغياب أكثر من يومين، فإنني أنصح بأن تذهب نيكول معهما. ولن تجدي الكثير من المرح هناك عزيزتي.. تجالسين الطفل طوال الوقت، بابا مشغول، ودولوريس تقوم بالتجوال العادي للتفرج على المدينة.. أعتقد أنك لم تفكري بهذا.

ردت كاترينا متحدية بغضب:

ـ لن يكون الأمر هكذا!

فنظرت إليها دولوريس جانباً بدهشة.. يبدو أن طبعها قصير العنان جداً هذه الأيام، وأكملت كاترينا غاضبة:

ـ ليس هكذا، صحيح دولوريس؟

دولوريس التي أنهت طعامها، أبعدت الطبق جانباً، وانشغلت في تقطيع حبوب العنب لتضعها في طبقها، فوق اللبن الرائب المنزلي الحلو، وأخذت وقتها لترد. قالت بهدوء، تنظر إلى زوجها بسرعة:

ـ لا.. ليس هكذا.. في الواقع والدك هو الذي سيقوم بمعظم مجالسة الطفل.. أما بالنسبة للتفرج على المدينة فهذه ليست أول مرة أزورها، لذا لست بحاجة إلى التعرف إليها. فنحن ذاهبتان للتسوق.. ومن يحتاج إلى رجل معه؟ إنهم لا يملكون الكثير من الصبر.

نظر رامون إلى زوجته نظرة ذات مغزى وقال مقاطعاً:

ـ بل لدي الكثير من الصبر.. لكنني أعترف أنني أنزعج جداً حين لا تستطيع النساء اتخاذ قرار سريع، بعد أن يقلبن كل البضاعة في المحل.. وهن يترددن دائماً لو أعطيتهن حق الخيار.

أصرت يانيس بإلحاح بارد:

ـ مع ذلك لا أظنك ستمرحين كثيراً كاترينا.. وأظن أنك إذا أخذت إجازة من عملك يجب أن ترتاحي.. هنا حيث الهدوء والسكينة.. أثينا صاخبة جداً، حتى في الشتاء.

تخلت كاترينا عن أية نية للتصرف كفتاة يونانية عاقلة.. وصاحت مشاكسة:

ـ لا أريد أن أرتاح.. أريد التغيير.. «دولي» قالت إنني أستطيع أن أذهب، وبابا موافق، وهكذا سأذهب!

ـ وعائلة بابلوڤيلوس.. سيخيب أملهم جداً.. خاصة تاكيس الذي كان يقول لي إنه لم يرك كثيراً هذا الصيف..

تمتمت كاترينا من بين أسنانها:

ـ بإمكان تاكيس أن يذهب إلى الجحيم..!

لكن دولوريس سمعت الكلمات، وعضت شفتها كي لا تضحك.. وقاطعت الصمت بعد أن أصبح لا يحتمل، وكانت كاترينا مشتعلة غضباً، ويانيس ساخطة، ورامون يتجاهل الاثنتين تماماً.

ـ هناك شيء آخر كنت أفكر فيه. لا أظن أن منزل يانيس مناسب.. ولكنه على الأقل ليس كالفندق.

لم تدخل المنزل من قبل، لكن رامون أراها إياه من الخارج وهما مارّان به، إنه منزل صغير خلف جدار مرتفع في شارع هادىء ولا تريد الإقامة فيه. فكرة النوم في الفراش الذي قد يكون رامون يشارك فيه «يانيس» قد آلمتها:

ـ لا أظن أن في منزلك مهد للطفل؟

هزت يانيس كتفيها، وأرفقت هذا مع ابتسامة تفهم:

ـ لا، دولوريس.. لكن بالإمكان شراء مهد.. وأنا واثقة أن رامون لن يعتبر هذا خسارة للمال.

ردت الابتسامة بمثلها:

ـ لكنني أنا أعتبره هكذا.. الفندق سيوفر لنا المهد مجاناً.. وبما أن لدينا مهداً جيداً هنا، لا أرى سبباً لخسارة المال. إضافة إلى هذا، ستتكلف مالاً كثيراً أجرة تاكسيات للوصول إلى مراكز التسوق.. والفندق أفضل لنا في الأمسيات.. فيه نشاط وحيوية أكثر لكاترينا.

كان هذا جدالاً منطقياً جيداً.. أملت أن لا يجد زوجها ثغرات فيه.. وأن يحقق أملها.. أخذ رامون ملعقة لوز ناعم ممزوج بالعسل، ثم هز رأسه موافقاً.

ـ الفندق الذي استخدمناه في طريقنا إلى هنا؟

التفت إلى كاترينا:

ـ إنه فندق قديم الطراز فيه الكثير من السواح، يقدمون الطعام مع الإقامة وهو من الدرجة الأولى.

تبدو أثينا في الشتاء بنفس جمالها في الصيف.. وظنت دولوريس أن السبب دون شك هو الأنوار المرتدة أشعتها عن الحجارة القديمة للأكروبوليس.. وكأنها كانت تمتص أشعة الشمس خلال الأشهر الحارة الجافة كي تبقى على تألقها الذهبي.

العمل الذي جاء برامون إلى أثينا بقي لغزاً لدولوريس. لكن، مهما يكن من أمر فإن رامون بدا ناجحاً جداً في عمله، وعاد إلى الفندق بعد «مشواره» الصباحي القصير، والذي يتبعه عادة موعد غداء طويل، يبدو فيه راضياً.

في اليوم الثاني لإقامتهما في الفندق جاءهما بعربة أطفال قابلة للطي وكان مركز الفندق مناسباً لقربه من أفضل مراكز التسوق..

وهكذا تبادلت دولوريس وكاترينا الأدوار في دفع العربة في الشوارع حيث أنفقت كاترينا بحذر مرتباتها التي كسبتها وجمعتها إضافة إلى مكافآتها. ولاحظت دولوريس أن ابنة زوجها لم تسألها مرة «هل يناسبني هذا؟» فإن لكاترينا كل ثقة أبيها بنفسه، وكذلك فإن ذوقها كذوقه.. متحفظ. ولكن نوبات التوتر وهبات الغضب تلاشت لتصبح مزاجاً يسهل التعامل معه.

وبالنسبة لها، قال رامون، إنهما سيبدآن من جديد. وواضح أنه كان يعني ما يقول.. وضع مهد بيتر بين سريريهما، واستمر في التحبب إليها ورعايتها لدرجة أنه لم ينفك يقدم لها يده للمساعدة، وكان نادراً ما يلمسها.. بغير داع. فأغضبها هذا وأطار النوم من عينيها، لتظل مستيقظة ليلاً.. إنها علاقة من النوع الذي اشترطته، ومع ذلك، فإنها لم تكن راضية أبداً.

في الظلام، كان بإمكانها سماع تنفسه الهادىء بسهولة وكذلك شخير بيتر الخفيف.. تنهدت بسخط لعدم استطاعتها النوم، ومدت يدها تضيء المصباح إلى جانب سريرها.. في ضوئه الخافت، رأت رامون يستدير إلى ظهره وقد فتح عينيه.. كالقط، نائم في لحظة ومستيقظ تماماً في الأخرى.

ـ ألا تستطيعين النوم؟

كانت تمتمة هادئة منخفضة الصوت، وأدار رأسه ينظر إليها.. في العتمة النسبية، كان من المستحيل أن تتبين تعابيره.. شيء شديد الشراسة جعل معدتها تنكمش، حتى أنها أجفلت لألمها، لكنها حافظت على صوتها منخفضاً.

ـ لا.. إذا كان لا يزعجك، أعني الضوء، سأقرأ قليلاً.

ذلك الشيء الشرس تملك معدتها مرة أخرى، وكان أن بدأ يهزها حتى أنها ارتجفت، واليد التي مدتها إلى الطاولة قرب السرير، كانت

غير ثابتة بشكل ظاهر.

أغمض عينيه مجدداً، فأخذت تعبث بصفحات الكتاب دون أن تقرأ، حتى ولا ترى الحروف المطبوعة، وكانت تتصفحه بسرعة ولا يمكن لأحد أن يقرأ بمثل هذه السرعة التي كانت تقلب فيها الصفحات.. حاولت التركيز لكن كل المطبوع أمامها كان مجرد ضباب.

حين تكلم رامون مجدداً، وبلطف، أحست بالراحة.

ـ هل أنت مريضة؟

ـ لا.. لا شيء يعكر صحتي..

قلبت صفحة أخرى، هذه المرة لا ترى شيئاً بسبب الدموع التي بللت عينيها:

ـ لا أستطيع النوم.. فقط.

ـ شيء تشربينه، ربما؟

أبقت عينيها على الكتاب، وسمعت صوت تحركه فوق السرير، ورميه الأغطية إلى الوراء. ثم سمعت وقع خطواته بالرغم من أنه كان حافي القدمين، وسألها:

ـ ساخن أم بارد؟

ـ بارد.

ردت عليه عبر أسنان مقفلة بشدة، خوفاً من أن تصطك لو خففت ضغط فكيها.. وسمعت فتح باب البراد وعيناها على الكتاب «وطقطقة» الزجاج، صوت فتح زجاجة مرطبات، ثم وقع أقدامه مجدداً، يتقدم نحوها، ويقف إلى جانب السرير إلى أن تنظر إليه.

واشتدت يداها على الكتاب وهي تحدق في صفحاته، وتحس ببرودة العرق على جبهتها.. إنه يعرف تماماً ما يريد.. وسيكون هذا أكثر من أن تتحمله.. إنها إحدى المرات العديدة التي مرت بها ولكم

كانت مشتاقة إليه توافق إلى حضوره معها وهي في لندن عند ولادتها لابنهما بيتر، وانتابها الندم لهذا ثم جعلت تنتقم من نفسها بأقسى الكلمات فأسمت نفسها بالغبية الخفيفة الوعي والمجنونة والشهوانية.. لكنها لم تكن يوماً بهذا السوء، وهي في طرف قارة من الأرض ورامون في الطرف الآخر.

إنه الآن في الغرفة، إلى جانبها.. لو أدارت رأسها ولو قليلاً، ستراه.. لقد قرأت عن نساء تتركز مشاعرهن في رجل واحد فقط.. لكنها لم تفكر يوماً أن تكون واحدة منهن.. ضعيفة حمقاء، تكرس نفسها له وحده بحيث لا يعود يهمها ما فعل هذا الرجل لها، وكم جرحها، وسيستمر في جرحها.

تقدمت يده إلى دائرة الضوء التي يرسلها المصباح:

ـ اشربي دولوريس.

اشتدت أصابعها على الكتاب.. لن تستطيع أخذ الزجاجة منه، وكأن أصابعها ملتصقة بالغلاف.. ببطء، وبكثير من الجهد، هزت رأسها، وبصعوبة استطاعت أن تفتح فمها الجاف لتتكلم بصوت أجش:

ـ لا.. لا أريد..

ـ ماذا تريدين إذن؟

مد يده يضع الزجاجة على المنضدة بهدوء في وسطها تماماً:

ـ أتريدينني أنا.. آغابي؟ أتمنى هذا.. فأنا أريد زوجتي كثيراً.

الدموع، لا بد أنها دموع الخجل من ضعفها، تصاعدت أخيراً لتنسكب وتجري على وجهها، وقالت هامسة:

ـ لا أستطيع..

صممت أن تشرح له كل شيء مشاعرها السخيفة الضعيفة تستطيع تجاهل يانيس، ولكن دماغها لا يستطيع..

كررت هامسة بيأس.

ـ لا أستطيع.. أنت لن تفهم...

ـ بل أفهم أكثر مما تظنين.

دس رامون نفسه قربها في الفراش، فأجفلت لقربه منها، ثم انتزع الكتاب من أصابعها المتشنجة، ليرميه إلى الأرض:

ـ وأنا أعرف مشاعرك حين أراها أغابي..

قالت بصوت كالأنين:

ـ أعتقد أنك تعرف.. أجل.. بالطبع تعرف.. كل تلك الخبرة.. لا بد أنك تعلمت شيئاً منها.

ـ دولوريس.. كنت تعرفين أمر تلك «الخبرة» حين تزوجتني.. أنا لم أقلها بالكلمات، لأنني اعتقدت أنها غير ضرورية.. فأنا أعتبرك ذكية.. كاترينا عمرها ست عشرة سنة، وأمها ماتت وهي في الخامسة.. لم يكن لي رغبة في ذلك الوقت أن أتزوج مرة أخرى، وبقيت هكذا لعشر سنوات..

الغضب كان سلاحها الأوحد، فجمعت منه قدر استطاعتها.

ـ.. ولعشر سنوات، كنت منطلقاً على هواك.. حتى بعد هذا، بعد أن تزوجتني، كان لك علاقات صغيرة.. أوه، لا تزعج نفسك بالإنكار.. لقد قلت لك إنني رأيتك! أنت ويانيس.. ولا تتجرأ أن تحاول القول لي إن ما رأيته أخوي فقط، ولأنها قريبة لزوجتك الأولى.. لقد رأيت!

ـ وإذا قلت لك..

ـ لا أريد الحديث عن الموضوع.

نفضت يديه عنها، حيث كانتا تقيدان إرادتها، ومعنوياتها، لكنها فشلت، وأخفضت كتفيها مسترخية، وأطبقت شفتيها بحزم وقوة.

قال:

ـ أنت تدينيني لحادثة عرضية صغيرة..

ـ لقد رأيت.. ولم تبدُ لي صغيرة عرضية.. وكما قلت، لا أريد الحديث بالموضوع أكثر من هذا.

لكنها كانت تتمنى أن تواجهه بكل شيء، فكما يصور ما حدث، يبدو الأمر وكأنها جعلت من الحبة قبة. وأرادت أن تتفوه بملاحظات شريرة، لكنها لم تجرؤ، دون أن تشرك كاترينا بالأمر.

من زاوية عينها لاحظت الارتفاع السريع لحاجبيه، إنه النسخة الكبيرة من تقطيبة بيتر الصغيرة:

ـ إذن، كنت محقاً في تفكيري.. لقد بدأت تندمين على زواجنا..

فتحت فمها لتنكر، فأسكتها بهزة رأس منه:

ـ لم يحدث هذا على حين غرة.. لقد لاحظت الفرق لمدة.. وتمسكت بأول عذر لتهربي، ولتضعي قارة كاملة بيننا.

ـ هذا أفضل من إجبارك على التبرير.. وأفضل من سماع أكاذيب ومراوغة..

وانقلبت المشاعر الشديدة في داخلها الآن إلى ألم جسدي وأخذت تخرج الكلمات من بين أسنانها، وهي تبقي نفسها دون حراك، بقوة إرادتها فقط.

قال رامون:

ـ وأنت الآن هنا، وما زلت زوجتي.. ولو عضضت شفتك أكثر من هذا، فستدمينها.. وأنت ترغبين بي.

ـ أرغب بك كما أرغب الجحيم! دعني وشأني! أيها الشرير، النذل! ألا يمكنك ولو لمرة واحدة، أن تكون منصفاً في لعبتك؟

بدت عليه التسلية، وهو يخضع مقاومتها العقيمة دون صعوبة:

ـ لكنني منصف.. حسب مقاييسي.. سأريح ضميرك لو أنكرت

كل شيء، وقلت لك إنك مخطئة، لكن لماذا أسهل لك الأمور؟ لسنة كاملة، إلى أن هربت، عاملتك بلطف ورقة، لكنك الآن ستتعلمين أن تكوني زوجة يونانية طيبة.. وأن تضعي أولوياتك بشكل صحيح.. أول ما يأتي في حياتك هو زوجك، ثم أولادك، وما تبقى من وقت تخصصينه لبيتك.. وإذا فعلت شيئاً لا يرضيك، بإمكانك رمي الأغراض عليّ.. وإذا فعلت شيئاً لا يرضيني، سأضربك، لكن لن يكون بعد الآن صمت غاضب، أو عزلة سخيفة.. سأحصل عليك ساعة أريدك، ولن أتجاهل حاجتك. ستنالين كل شيء أستطيع توفيره لك، وستجدين هذا كافياً!

توقفت عن مقاومته، وقلدت شيئاً من وقاحته:

ـ حسن جداً.. خذ مني ما تريد.. لكن في الصباح، سترى أن شيئاً لم يتغير!

ـ كنت زوجتي لسنة، وتصدقين هذا؟

ـ لقد جربت هذا ليلة وصلنا إلى كورفو.. ولم يوصلنا ذلك إلى أي شيء.

ـ هذا لأنني كالأبله، انتظرتك أن تقومي بالخطوة الأولى، ظننت الحب لا زال موجوداً، وأن الأمور بيننا تجاوزت المحنة.

اعترفت بصراحة:

ـ أريدك.. أريدك.. لكنني لا أحبك.. لذا أحس بالإذلال، وأحتقر نفسي.. أنت تجردني من احترام ذاتي.

مدّ يده خلفها يطفىء النور:

ـ يا لهذا الهراء!

وضمها إليه بسعادة وذراعاها تلتفان حول كتفيه.

ـ لقد مضى على وجودنا هنا، أسبوعين، وهذا كل ما أستطيع توفيره من وقت.. سنعود إلى المنزل غداً.

كان يقول هذا حول الفطور المعتاد من الخبز الساخن الطازج والقهوة، في غرفة طعام الفندق.. وعادت دولوريس إلى الأرض مصدومة.. لآخر سبعة أيام، كانت تتجنب التفكير بالمستقبل بعناد.. وكانت أياماً سعيدة.. تصادقت فيها كاترينا مع ابنة مراهقة لزوجين انكليزيين، فجعلت تخرج معهم في رحلات استكشاف، مرحة جداً وخالية من كل هم.

في تلك الأثناء، وبالرغم من أن دولوريس شاهدت كل هذا من قبل، فقد شاهدته مجدداً.. ورامون يحمل بيتر إلى جانبها في كل الأماكن التي تفضلها..

كل هذا وصل إلى نهايته الآن.. في الغد ستعود إلى «كورفو». ستكون يانيس بالانتظار، وكأنها وباء يحط عليهم ويفسد كل ذكرياتهم.. نظرت بسرعة إلى كاترينا، لتكتشف تعبيراً كئيباً جداً على وجهها، وكأنها لا تريد العودة هي كذلك.

قامتا برحلة سريعة إلى پالكا، حيث زحام الشوارع الضيقة، حيث تشوقت دولوريس وكاترينا في آخر الوقت إلى بعض هدايا الميلاد.. ثم عشاء طويل متواضع مع الزوجين الانكليزيين وابنتهما.. وراقبت دولوريس كاترينا والفتاة الإنكليزية تتبادلان العناوين.. فالزوجان الانكليزيان مغادران في الغد أيضاً.. وضحكت بينما تبادلت الفتاتان البكاء ثم الضحك.

الغد.. أرضعت دولوريس بيتر، وغيرت له، ثم وضعته في المهد، بينما جزء منها يتمنى لو أن الغد لا يأتي.

* * *

٧ ـ زوجة اليوناني

ذهبت ايلڤيدا إلى البلدة لشراء أغراض عشاء الترحيب بهم وسعادتها برجوعهم كانت واضحة. وكان طهيها جيداً هذه المرة.

يانيس، كعادتها، كانت تبدو جميلة، باكتمال زينة لا يأتي إلا بعد ساعات من التحضير.. وتمنت دولوريس لو كان لديها هذه القدرة، وأن تفعل الأشياء بدقة كاملة، لكن ليس لديها الصبر ولا الوقت.. فحين أنهت رضاعة بيتر لم يكن لديها سوى ربع ساعة تغتسل فيها وتغير ملابسها.. ومرت نظرتها على كاترينا، التي بدت وقد فقدت شيئاً من التألق المشع الذي ظهر عليها في أثينا..

كان رامون رقيقاً بلطف، يشارك الحديث مع نساء منزله: تعليقات باليونانية مع يانيس، لتهدئتها.. ولماذا بحق السماء تحتاج إلى تهدئة؟.. مزحة مع ابنته، شيء عن زيارة إلى انكلترا لرؤية صديقتها الجديدة، التي قال إنها مستحيلة هذه الأيام، ولم تعد بالنسبة لكاترينا مزحة، وأصبحت تقطيبتها بشدة تقطيبة جبين والدها.

أدخلت ايلڤيدا طبق «فتة» الجبن وإبريق القهوة اليونانية، فتمتمت دولوريس معتذرة وخرجت.

في غرفتها، شغلت بعضاً من وقتها، تفرغ حقائبها، تفتش بين أشيائها، تتنقل بين الأدراج والحقائب والخزائن، وسلال الغسيل، إلى أن تخلصت من كل شيء، وأصبح بالإمكان إبعاد الحقائب الفارغة

ووضعها في مكان ما.. وتحرك بيتر في مهده، إنه يكبر على حجم المهد. وسيحين قريباً موعد إخراج السرير الكبير له.. التقطته، وجلست على مقعد منخفض تضعه على حجرها.

كان يطالب بوجبته من الرضاعة، لكن ليس بشدة، شخيره توقف وصوت صدره أصبح أقل حدة.. لكن الانتقال والتغيير في السفر أزعجه.

ـ لقد اعتدت على أن تحمل، وأصبحت تحتج لهذا السبب.

دغدغته في بطنه، وكافأها بابتسامة عريضة هادئة فبدا وكأنه يقول لها «مرحباً» لكن مجرد صدفة لأن ابتسامه كان نادراً.

ـ الرعاية.. هذا ما تريده.. إنك كبقية الذكور!

ـ وماذا فعل الذكور لإغضابك؟ آغابي؟

دخل رامون بصمت، ووقف ورائها، ينظر إلى ابنه من فوق كتفها.. ورمت كلماتها من فوق كتفها كذلك دون أن تدير رأسها إليه:

ـ إنهم متطلبون.. انظر إلى هذا الذكر.. لم يبلغ الخمسة أشهر بعد، مع ذلك يُظهر آثار الذكر المتعصب المكتمل.. فلقد أفسده الدلال.. هذا ما هو عليه!

انحنى فوقها ويده على كتفها بينما يداعب صدر ابنه باليد الأخرى:

ـ ومن يقوم بالدلال الأكبر له؟ أمه الحبيبة بالطبع.. ألا يجب البدء في فطامه قريباً؟

وتصنعت دولوريس المرح بكل جهد وهي تجيب على سؤاله:

ـ أتحاول الخلاص مني بهذه السرعة؟

هذه الأيام القليلة التي مرت كانت رائعة لكنها لا زالت لا تستطيع السماح لنفسها بأن تكون واثقة من موقفها.. لا تجرؤ! والأمر صعب جداً عليها، إنها تشعر أنها تعيش ليومها الذي يشعرها تشاؤمها أنه قد

يكون يومها الأخير.. صحيح أن رامون كما يبدو لديه تخطيط ما لمستقبلهما.. لكن ذلك التخطيط جرى خارج محيط سيطرة يانيس، وخارج محيط نفوذها.. ومن يستطيع أن يعرف، وها هو قد عاد الآن، أنه لن يندم على ما خطط، ولن يبدأ في تغيير رأيه؟

ـ أقول هذا ليكون لك وقت أطول لنفسك يا عزيزتي.. ومزيد من الوقت.. لي.

وابتلعت خيبة أملها:

ـ كلام أنيق..

لماذا لا يستطيع أن يقول شيئاً أكثر رومانسية مثل «لن أدعك ترحلين أبداً»؟ وأكملت:

ـ وبما يكفي من إيثار الغير كي لا تبدو أنانياً!

ضحك للهجتها الحادة:

ـ كل الرجال أنانيون، وقد قلت أنت هذا بنفسك أغاپي، لذا ركزي على اتهامات وتعصبات أخرى ضد الذكور بينما أنا في الحمام.

أحنت رأسها ساخرة:

ـ كما يأمر سيدي.. ولا تسرق كل الماء الساخن..

حين استيقظت دولوريس صباحاً، كان رامون قد خرج، إلى أين.. لا تدري، لكن على الأرجح لعمل ما، لا يتوقع منها أن تفهمه، ولا اهتم أن يقوله لها.. هل ستعتاد على زوج يبرمج حياته على أساس قسمين مختلفين «له» و «لها»؟

لكن الصغيرة نيكول كانت تتحرك في الغرفة، تفتح الستائر لتدع النور يدخل، وتفتح النوافذ ليدخل الهواء البارد الرطب، وهي تغني بصوت منخفض لحناً يونانياً حزيناً.

ـ كاليميرا كيريا دولوريس.

أدخلت نيكول صينية شاي، فأزاحت دولوريس الأغطية لتجلس

وتتلقى الصينية على ركبتيها.. هذه الصبية الصغيرة تخدمها ويجب أن تخجل من نفسها لسماحها بهذا! مع ذلك يبدو أن نيكول تتمتع بهذا..

راقبت نيكول وهي ترفع بيتر من مهده.. ذراعاها النحيلان الصغيران لا يبدوان قويين إلى حد يكفي لهذه المهمة.. لكن لم يكن عندها أي تردد في حمله وهذا نتيجة التمرن في حياة الأمومة.. وابتسمت دولوريس بخشونة وهي تتذكر أول عهدها الصعب بمهمات الأم.

قالت نيكول بإنكليزية بطيئة، جيدة، لكن ليس كثيراً:

ـ إنه لا يريد الرضاعة بعد.. سألعب معه قليلاً.. هذا جيد له.

هكذا خرجت دولوريس من السرير، وأسرعت إلى الحمام، تاركة الطفلين يلعبان معاً.. ماذا يخبىء لها القدر اليوم؟

حين وصلت غرفة الطعام، لتناول فطور متأخر، وجدت الغرفة فارغة.. هكذا، بعد فنجان قهوة سريع، ورغيف خبز بالعسل، وفنجان قهوة آخر، اتجهت إلى المطبخ لتساعد ايلڤيدا إلى أن حان وقت إطعام بيتر.. بعد أن اهتمت بابنها، عادت إلى المطبخ، هذه المرة تضع القطن في أذنيها كي لا تسمع تذمر ايلڤيدا.. فهي امرأة عجوز تحتاج إلى من يساعدها، شاءت أم أبت!

مر اليوم دون ظهور يانيس، ما عدا وقت الغداء، حين خرجت من غرفتها تعبق برائحة «اللافاندر».. تشتكي الصداع.. وعادت إلى الغرفة بعد ابتلاع ملعقتين بالضبط من حساء الدجاج، وأمضت الوقت، على ما يبدو، بين الغداء والعشاء في عزلة تامة..

في السادسة والنصف، عاد رامون وابنته معاً في «الرانج روڤر»، ليفاجئا دولوريس بالقول إنهما كانا معاً طوال اليوم.

رفعت دولوريس حاجبيها دهشة:

ـ ألم تكوني في الفندق؟

ردت كاترينا:

ـ لست مضطرة إذا كنت لا أريد.. فالعمل هناك ممل الآن بعد رحيل كل زوار الصيف.. وليس هناك ما يكفي منهم لإبقائي مشغولة، إضافة إلى هذا، عرض علي بابا أن يأخذني إلى باكسوس حيث هناك عمل حقيقي لي.. الڤيلتان الجديدتان دولي.. يقول بابا إنه سيأخذك إلى هناك قريباً لتصوري داخلهما، لأجل الكتيبات السياحية.. وكم أتمنى لو كانت الڤيلات في كريت منتهية.

ولمع الحماس في عينيها، واتسعتا دهشة وترقباً.. كاترينا، تضع شيئاً في رأسها، وربما يكون متعلقاً بعائلة بابلوڤيلوس وإذا كان الأمر هكذا، لن تلومها دولوريس لو كان هذا أمر يتعلق بها.. لكنه ليس كذلك.. كاترينا ليست ابنتها، حتى ولو كانت كذلك لما استشارها رامون،، وهذه هي طريقة تفكير الرجال اليونانيين حول العيش في عالم يذهب فيه الرجال إلى أعمالهم، ويتخذون كل القرارات، بينما تعيش النساء بكل صمت وأدوات الطبخ في أيديهن!

إلى أن اغتسل رامون وكاترينا وغيرا ملابسهما، وعالجت يانيس صداعها بما يكفي لأن تشعر بقدرة على الانضمام إليهم، كانت الساعة قد قاربت التاسعة، حين بدأت ايلڤيدا تقدم الطعام.. فتأوهت دولوريس.. لأن الوجبة قد تأخذ ساعتين أخريتين، وهذا يعني، كالعادة، أنها لن تتناول الحلوى.

ما إن حلت الساعة العاشرة، حتى تركت دولوريس المائدة تحمل خصلة عنب وصعدت لتهتم ببيتر.. الذي كان مستيقظاً ينتظر، ويرفس برجليه ويطلق صيحات قوية.. نظر إليها بغضب، فأخمدت صرخاته الساخطة برفعه من المهد، فتهلل وجهه بابتسامة مشرقة.. لكنها ما إن بدأت ترضعه، حتى دق الباب، ودخلت كاترينا، ترمي نفسها على حافة السرير.

ـ عاد بابا يتكلم عن المدرسة مجدداً.. كيف ستكون يا دولي؟

ـ ليس لدي أية فكرة.

قالت بدهشة:

ـ أتعنين أنك لم تذهبي إلى واحدة منها؟

هزت دولوريس رأسها:

ـ لا.. فوالداي ماتا، وعشت مع عمة مسنة. ولم يكن لديها ما يكفي من مال لترسلني إلى مكان كهذا.. كان من المهم أكثر أن أتعلم كيف أكسب عيشي بنفسي.

ـ تقول يانيس إنني سأتعلم أشياء كثيرة، كيف أدير منزلاً، كيف ألبس، كيف أقيم حفلات العشاء، وأشياء كهذه.. تقول إنها ستعطيني الثقة بالنفس.. لكنني لا أدري لماذا يجب أن أذهب إذا لم أكن أرغب.. فأنت لم تذهبي، ونجحت في حياتك جيداً.. ولقد صرت الآن لا أمانع في الذهاب، لكنني مضطرة للانتظار حتى السنة القادمة، كما يقول أبي. إنهما في الأسفل، بابا ويانيس يتحدثان عن الأمر.

والتوى فمها في ابتسامة ساخطة:

ـ لا حاجة لأن يزعجا نفسيهما، فأنا لن أذهب.. أحياناً أعتقد أنهما يحاولان التخلص مني!

قالت بتكلف:

ـ أنا واثقة أن والدك يفكر قلبياً بمصلحتك.

لم تعجبها فكرة أن يستشير رامون يانيس حول مستقبل كاترينا.. وحاولت أن تكون منفتحة الذهن حول الأمر. وقالت لنفسها إن يانيس على أي حال لها قرابة من نوع ما للفتاة وإن من واجبها التفكير بمصلحتها.. لكن الانفتاح الذهني اللطيف لم يجد نفعاً، وهي تغلي غيرة، تتصور كل أنواع الأشياء، تستبد بها الغيرة من نفوذ يانيس على رامون.. ومن إصغائه إليها.. يصغي باهتمام.. وتصورتهما معاً

يجلسان في نور الغرفة الضئيل يتحدثان بصوت منخفض، وعيونهما تقول أكثر من الكلمات بكثير.. ثم وقفت فجأة، مما أجفل بيتر وجعله يصرخ مجفلاً، فأسكتته بسرعة وراقبت جفنيه وهما يغمضان، ووضعته في مهده، فلاحظت أن يديها لم تكونا ثابتتين، كما تودهما أن تكونا.

وجدت دولوريس صوتها، وأبقته بارداً مستقراً:

ـ لماذا لا تتركين الأمر لفترة؟ لا داعي للقلق حول شيء قد لا يحدث.. السنة القادمة لا زالت بعيدة، وأنا واثقة أن لا أحد يحاول التخلص منك.. والدك يحبك كثيراً..

رفضت كاترينا أن تهدأ وتطمئن:

ـ لكن، السنة القادمة، سأصبح في الثامنة عشرة تقريباً ويبدآن في التفكير بزواجي مجدداً، وأنا لا أريد الزواج لسنوات قادمة، خاصة إذا كانا لا زالا يفكران «بالمنقط» السمين تاكيس.. أوه.. دولي.. ظننتك ستكونين مختلفة عنهما، لكنك لست كذلك. انتظري لتري، أهذا كل ما تقولينه لي..؟ أنا لا أريد أن أنتظر.. أريد ترتيب كل شيء الآن!

وبحركة ازدراء، غادرت الغرفة.

قالت دولوريس كأنها تخاطب الباب الموصد وراء كاترينا: ولست الوحيدة! لكنك صغيرة، وستكبرين لتنسي كل شيء! ثم خلعت ثيابها بقلق لتدخل الفراش.. ستكون حمقاء لو ظنت أنها بكونها زوجة لائقة لرامون، سيكون هناك فرق.. لقد نجح هذا جيداً في أثينا، وكان لهما شهر عسل جديد، لكن ما إن عادا إلى هنا، لم يعد هناك فارق.. حديث الوسادة كان الشيء الوحيد بينهما.. حتى في تلك اللحظات لم يكن يذكر الحب.. بل مجرد الرغبة.. خاطبت نفسها: المشكلة أنك فاسدة غيورة.. غيورة وشكاكة.. ليس لديك الثقة بالنفس إطلاقاً.. وإذا كان أي شخص بحاجة إلى سنة في مدرسة، فهو أنت!

ـ أنت لست نائمة «آغابي» فلا تتظاهري بالنوم.. قالت لي ايلفيدا إنك كنت تساعدينها في المطبخ، وهذا غير ضروري. إذا كانت تحتاج لمساعدة، وأعتقد أنها تحتاجها فقد قاربت السبعين، سنجد امرأة تأتي لتساعدها يومياً.

سخطت دولوريس لغبائه:

ـ وتحصل على حرب أهلية؟ لسوف تنتزع الحياة من المرأة، ولن تدعها تفعل شيئاً سوى مسح الأرض.. فهي ستخشى أن تكون ستستغني عنها.. وأنا الشخص الوحيد الذي تتحمله، لأنها لا تستطيع منعي.. إضافة إلى هذا، أحب أن أبقى مشغولة، فلست معتادة على الجلوس، وعلى من يخدمني.. ولو كنت في لندن لسعيت إلى العمل.. أو حتى لأفتح «استديو» للتصوير.

ـ وهل تشعرين أنك قادرة على هذا؟ أجل.. تبدين أفضل حالاً بكثير.. لذا، إذا أردت أن تعملي.. فلدي عملاً لك.. أود التقاط صور لداخل الڤيلات في «باتراس» وأن تكون جاهزة في الأسبوع المقبل، كي يصبح بالإمكان إصدار الكتيبات، وإرسالها إلى وكالات السفر في أوائل كانون الثاني.

ـ إنه توقيت متأخر قليلاً.. معظم الكتيبات الأخرى ستكون جاهزة، وستكون الحجوزات قد بدأت.

شدها إليه يريح خده على شعرها:

ـ أجل.. لكنني سأخاطر.. هل سيتأثر بيتر من السفر في مركبي؟ بإمكاننا ركوب مركب النقل.

أخذت دولوريس تنعس، والكلمات تخرج مع التثاؤب:

ـ في مركبك، أعتقد.. هذا إذا ضمنت إكمال الرحلة في وقت أقل من وقت مركب النقل المريح، والذي لا أظن أنه سيكون محتشداً مع انتهاء الموسم.

ومع تثاؤبة كبيرة، اتجهت إلى النوم.

حين استيقظت في الصباح، وكان بيتر قد أصبح ينام طوال الليل ونادراً ما يزعجها قبل الثامنة، وجدت أن رامون وكاترينا قد خرجا إلى باكسوس، كما قالت نيكول، حيث ستقرر كاترينا نوع البلاط لحمامات الڤيلات وألوان غرف النوم..

أحست دولوريس باستياء لتفويت هذه الفرصة السعيدة عليها، لكنها ابتهجت وهي تفكر بالأشياء التي يجب أن تفعلها.. ستنظف الكاميرات وتتفحصها، تشتري أفلاماً وبطاريات، وترى ماذا يمكن أن تحصل عليه للإنارة العامة.. كان من المؤسف أن تتخلى عما كان لديها، لكنها هنا لا تستطيع الاحتفاظ بها.

قالت لابنها تحذره:

ـ لا شيء من إزعاجك هذا الصباح، فأمك مشغولة، وليس لديها الوقت لتلعب معك اليوم.

بعد نصف ساعة كانت تتواثب في عربة البحر في طريقها إلى «باليوكاستريتسا» بعد أن تركت بيتر لنيكول ولا تزال يانيس ملتزمة غرفتها، وايلڤيدا تبدو بارتياح ظاهر لعودة مطبخها لها وحدها.

قالت ووجهها الملوّح بأشعة الشمس وتقلبات الطقس يتغضن وبشكل ابتسامة، وهي تحشو الدجاج بمهارة:

ـ كيريا يجب أن تكثر من الخروج.. لهذا جاء كيريوس رامون بنيكول إلى المنزل.. هكذا أفضل! للكيريا أشياء أخرى تفكر بها.. لا يجب أن تعطي كل وقتها، كل حبها للطفل.. يجب أن تشرك زوجها به..

ضحكت دولوريس في نفسها للنقد اللطيف، حسب مقاييس ايلڤيدا..

لم يكن في «باليوكاستراتيسا» الكثير ما عدا الأفلام، وكلها

جديدة، أبيض وأسود، وملونة.. لكن، لم تجد مصباحاً واحداً قوي الضوء.. وهذا مخيب للأمل، وإذا لم تستطع شراء المصابيح المشعة في الوقت المناسب، فهناك طريقة أخرى تصلح فيها من موضوع الإنارة، وهي أنه بإمكانها تثبيت المصباح الكبير المشع في السقف وتوجيهه إلى الزاوية التي تريد تصويرها.. ولم تكن هذه أفضل وسيلة، لكنها لن تفيد إلا إذا لم يكن السقف عالياً جداً.. ودخلت إلى مقهى «تراڤيرنا» وهي محبطة، وطلبت لنفسها القهوة.

في منتصف الفنجان الثاني، سمعت صوتاً من خلفها:

ـ مرحباً سيدتي! هل لي أن أجلس إلى طاولتك؟

استدار روي وايد حول الطاولة وجذب لنفسه كرسياً بثبات الشباب وثقته بنفسه، وبشخصية المعتاد على الترحيب أينما حل.

ابتسمت دولوريس شاردة الذهن، فتابع «يتشدق» بطريقته الأميركية:

ـ لم أركم من زمن بعيد.. هل أخذت كاترينا لنفسها إجازة أم أنها تخبيء نفسها؟

فشرحت له بلطف:

ـ كانت في أثينا لفترة، كلنا كنا هناك، وكانت بحاجة إلى عطلة.. هل تعرف هذا المكان؟

ـ أقيم هنا سيدتي.. هناك غرفتان.

وأشار بيده إلى أعلى:

ـ المكان رائع وهادىء في الشتاء.. أكنت تقومين ببعض التسوق سيدتي؟

ظهرت على وجهه ابتسامة عريضة.. قلبتها على عقبيها قبل أن ترد:

ـ اشتريت أفلاماً للكاميرا.. ولقد دهشت فحتى الأفلام البيضاء

والسوداء جديدة، وهذا ما لم أكن أتوقعه.. فمعظم السواح يستعملون الملون.

ـ يجب أن تشكريني لهذا سيدتي.. لقد كنت أقوم بعمل جدي.. وبدا لي من العار أن أستخدم كاميرتي «الروليكون» للقطات ملونة طوال الوقت.. فقمت ببعض اللقطات القريبة، صيادون عجائز، فتيات صغيرات جميلات.. وإذا كانت جيدة، قد أقيم معرضاً حين أعود إلى الوطن.. لكنك تبدين محبطة شيئاً ما.. سيدتي، فهل هناك شيء لم تستطيعي أن تحصلي عليه؟

حركت فهونها:

ـ أجل.. أردت بعض المصابيح المشعة.. لكن.. يجب أن أحاول إيجادها في كورفو.. أو أرسل في طلبها من أثينا..

ابتسم روي لها:

ـ ربما أستطيع أن أساعدك.

رغماً عنها أحست بسحره، بالرغم من عدم الثقة الذي تحسه نحوه.. دون شك لديه فتنة من نوع ما، ولا تستطيع لوم كاترينا لأنها وجدته جذاباً.. لكنها لم تكن كفتنة رامون، فتلك أشد وأقوى حتى العظم، ابتسمت لنفسها لهذه الأفكار السخيفة.. لا.. سحر روي وابد سطحي خفيف، ولا يمكن أن يكون عميقاً.. سحر مهذب تحكمه شخصية رصينة مهذبة.. هذا ما هو عليه.

ـ أجل سيدتي أظن أن بإمكاني مساعدتك على أي حال.. لدي بضع مصابيح مشعة، لم أستخدمها كثيراً، لذا، بإمكانك الاستفادة من بضع ساعات تصوير منها، قبل أن تحترق.. وأهلاً بك لتأخذيها سيدتي، بإمكانك إعادتها في أي وقت.. ابقي هنا، سأذهب لأجيء بها.

خرج من باب يقود إلى الأجزاء الخاصة من المنزل، وسمعت وقع

أقدامه على السلم.

اضطرت دولوريس للانتظار.. لم تكن ترغب في هذا، ولا تريد أن تتأخر.. كما أنها لا تريد إعادة العلاقة معه، خاصة بعد أن أعطت كاترينا انطباعاً أنها انتهت منه.. والأسوأ أنها تعي عدة نظرات فضولية من رواد الترافيرنا.. كم هي بلهاء.. كان يجب أن تتذكر أنها هنا في اليونان، وأن النساء المتزوجات لا يلتقين بمعارف من الرجال، ولو صدفة.. خاصة الجلوس للحديث في مكان عام..

عاد روي مع المصابيح المشعة والمنصات كلها مرتبة بعناية في علبة كبيرة مسطحة.

ـ ستذكرينني عند كاترينا يا سيدتي؟

حاولت دولوريس جهدها أن تشكره ببرود لعرضه، وخرجت بسرعة من الترافيرنا.. ما كان يجب أن تدخل إلى هناك أساساً.. لكنها لم تفكر بهذا..

لعلمها بعدم جدوى محاولة إخفاء سر في بلد صغير كهذا، باحت بكل شيء جرى في يومها ساعة العشاء ذلك المساء.. ودهشت لرد فعل رامون وابنته.. أما رد فعل يانيس فكان معروفاً سلفاً، في تعبيرها المشمئز المتجمد.. لكن دولوريس لم تهتم بها، فمهما فعلت فقد فعلته علناً وبكل براءة.

كانت بسمة رامون طبيعية لم يكن فيها معنى الاستهجان.. حتى أنه مازحها قليلاً، صوته العميق أخرج من يانيس تمتمات حانقة لكنها التفتت إليها تسأل وهي ترفع حاجباً وذقنها مرتفعة:

ـ ماذا كنت تقولين؟ ظننتك ذكرت شيئاً عن تصرف غير مقبول.. لكن، إذا كان زوجي تقبل الأمر، فهذا يكفي..

واستدارت بابتسامة حلوة بريئة إلى زوجها:

ـ رأيه هو الرأي الوحيد الذي يهمني.. حسب المقاييس

العصرية، أظنني تصرفت بشكل معقول.. حتى أنني لم أعرض عليه فنجاناً من قهوتي.

لكن رد الفعل الذي سيطر على كاترينا وكاد أن يقطع أنفاسها هو الذي أدهش دولوريس. فقد تجمدت كاترينا تماماً وبدا عليها كأنها تحس أن الأرض تتشقق تحت قدميها.. وبدت خائفة حتى الموت. لكن بنظرة ثانية، عادت كاترينا إلى طبيعتها، ولم يعد شيء يدل على توترها سوى بياض عقد أصابعها الممسكة بالشوكة.. لكنها صرفت النظر عن الأمر، كل شيء سيتضح في الوقت المناسب، فكاترينا سيئة جداً في حفظ الأسرار..

تابعت دولوريس بلطف وهي تنهي ما تبقى من طبقها:

ـ هكذا أنا مستعدة للذهاب.. الكاميرات نظيفة ومليئة ولدي الإضاءة المشعة التي أريدها.. وهذا ما يذكرني رامون بوجوب حصولي على بديل لهذه المصابيح.. فهل يمكنك...

ـ أجل.. سنذهب غداً، وفي طريق عودتنا سنعرج على كيركيرا، وإذا لم نستطع الحصول على ما تريدين هناك.. قد يتأخر وصوله.. فهل يهم هذا كثيراً؟

وضعت شوكتها من يدها، ومسحت يديها بالمنديل:

ـ لا أظن هذا.. إذن لو عذرتموني الآن.

وبابتسامة مشرقة أخرى، تركت المائدة مسرعة إلى غرفة النوم، حيث كان بيتر يثبت وجوده وجوعه بصراخه المرتفع.

بعد دقائق قليلة، دقت كاترينا الباب، ودخلت لترمي نفسها على البساط قرب السرير، أصابعها معقودة خلف رأسها وعيناها مركزتان على المصباح.. حاولت أن تسأل ببراءة:

ـ روي؟ كيف كان يبدو؟

ـ أكبر بشهر منذ رأيته آخر مرة.

ووضعت دولوريس بيتر على فراش الغيار الخاص:

ـ قال إنه لم يشاهدك كثيراً في المدة الأخيرة، وقلت له إننا كنا في أثينا لقضاء إجازة.. وكان يعرف هذا مسبقاً.. بالطبع.

ـ أعتقد أنك دعوته للعشاء.

أبقت دولوريس رأسها منخفضاً نحو الطفل:

ـ بالطبع لا.. لن أفعل هذا دون سؤالك أولا.. في الواقع ظننتك تخلصت منه.

لاحظت ارتياح كاترينا في استرخاء جسدها، حتى أنها أحست بأن جو الغرفة كله أصبح أقل توتراً. استدارت كاترينا برقة وابتسمت لها:

ـ هذا صحيح.. كنت أظنه رائعاً.. مليئاً بالجاذبية والسحر. لكنني الآن لا أظنه هكذا.. أعتقد أن هذا كان بسبب عدم وجود رجال آخرين أقارنه بهم.. أي شخص سيبدو لي جميلاً مقارنة بتاكيس.. أليس كذلك؟

استمرت دولوريس تلاعب بيتر:

ـ أعتقد هذا. لكن لماذا مقارنته مع تاكيس؟

قالت ساخطة:

ـ وهل أعرف غيره لأقارنه به.. ليس هناك أحد دولي.. وتعرفين هذا.. زوار الصيف، السواح، لا حساب لهم، لا يمكنك التعرف على أحدهم بشكل لائق في الوقت القصير الذي يقضونه هنا. أما الأولاد اليونانيين، مثل تاكيس، كلهم يفعلون ما يقوله لهم آباؤهم.. المال.. المال، والمال مجدداً.. وليس فيهم شرارة عواطف واحدة!

ـ يا للمسكينة! لكنها غلطتك في أخذ تاكيس كمثال للشبان وهناك واحد أمام أنفك مباشرة. أجل.. إنه هنا.. وأعني والدك أيتها السخيفة.. فلماذا لا تتوقفين عن التفكير ما إذا كان من تلتقيهم من الشبان أفضل من تاكيس وابدأي بسؤال نفسك ما إذا كان بإمكانهم أن

يقاربوا مثال أبيك! أستطيع أن أقول لك إن روي وايد لا يقاربه أبداً..
ما الذي أبعدك عنه على أي حال؟ هل قال لك أحد إنه كبير بالنسبة لك؟

جلست كاترينا على ركبتيها:

ـ إنه ليس باللطف الذي ظننته، وأنا لم أحبه أو أي شيء من هذا.. كان مجرد صديق.. شخص أتناول معه الكولا، أتكلم معه، و... لقد فعلت هذا لأن الجميع كان يقول لي أن لا أفعل.

ـ وهذا أسوأ الأعذار الممكنة.. وقد يدخلك في متاعب أكثر مما ترغبين.. والآن، بعد إخراج كل هم من صدرك.. اذهبي إلى الفراش، فإن لدينا يوم عمل شاق في الغد.

ضحكت كاترينا:

ـ أوه دولي.. كم أحبك.. أنت تقولين أحلى الكلام! أخرج كل هم من صدري!.. لم أسمع بمثل هذا التعبير من قبل!

* * *

٨ ـ الحقيقة تجرح أحياناً

رحلة المركب إلى باكسوس لم تكن مريحة جداً، فقد كانت ريح غربية قوية باردة تهب، فتأتي بوابل من المطر يضرب البحر ليصبح أمواجاً زابدة.. وكانت كاترينا تتمتع بكل لحظاتها وهي في «الكابينة» الصغيرة.. بيتر نام طوال الرحلة، ووقف رامون أمام الدفة، دون اضطراب، لكن دولوريس شعرت بالحسد وهي تراقب يختاً فخماً كان يشق الأمواج جنوباً، وبسرعته القصوى بينما المركب الصغير يرتفع ويهبط من مقدمته حتى مؤخرته بشكل عنيف يسبب السقم.

لحسن الحظ، وقبل أن تصاب الغثيان، مرت العاصفة القصيرة، وهدأت الريح، وتبددت الغيوم، لتظهر الشمس بأشعتها القوية في سماء زرقاء باردة.

قال رامون يهدىء من روعها:

ـ الأمر هكذا دائماً.. المتوسط يجب معاملته باحترام في هذه الأيام.. أما في الأيام القديمة، وقبل اختراع الآلة، فقد كانت المراكب الصغيرة تلتزم السواحل خوفاً من هذه العواصف المفاجئة التي يمكن أن تطيح بها، وتتقاذفها إلى حيث لا يمكن لراكبيها معرفة مكان وجودهم.

ووضعت دولوريس يدها على معدتها:

ـ لا تقل شيئاً عن التقاذف! كم بقي لنا لنصل إلى اليابسة؟

ـ أقل من ساعة.

وأشار إلى الخريطة أمامه:

ـ سندخل هذا الخليج شمال «لاكاس» وهو مكان وجود الڤيلات وليس هناك نقص في المقاهي حيث يمكن أن ننال وجبة طعام قبل البدء في العمل، هل أزعج الطقس العاصف بيتر؟

لم تستطع مقاومة الضحك:

ـ أبداً.. لقد نام طوال الوقت.. مما يدل على أن لابني مستقبلاً بحرياً رائعاً.

فوبخها بلطف قائلاً:

ـ إنه ابننا!

أوقف محرك المركب الصغير وهم يدخلون خليج لاكاس وإذا بالتيار يجرفه تقريباً إلى الداخل، تعالى صوت صدمة مكتومة، مع التصاق المركب بمنصة الرسو. ثم وقع أقدام حافية مع ركض أطفال صغار، ليلتقطوا حبل الرسو، وهم يضحكون للقادمين.. ثم توقف المركب، ومدت دولوريس يدها إلى زوجها لتستعين به.

ـ هل جئت لي بالكاميرا؟ فهذا أمر آخر نسيته.. سأحمل بيتر.

وداعبها رامون:

ـ إنك تثقين بي لحمل الكاميرات التي لن تنجو لو وقعت في الماء.. لكنك لا تثقين بي لأجل ابني الذي قد يقع!

كانت كاترينا قد سبقتهما على لوحة النزول المهتزة.

ـ بابا، دولي، هيا!

خطت دولوريس بحذر إلى اللوح الخشبي المتمايل، ومدت ذراعيها لتأخذ الطفل.

بدت باكسوس كثيرة الخضرة، بمظهر استوائي تقريباً، حتى في هذا الوقت المتأخر من السنة.. وأشعة الشمس كانت تبسط أشعتها فوق ڤيلتي رامون الجديدتين، البارزتين فوق المرتفع الغربي المطل

على الخليج، مما جعل دولوريس تهز رأسها بالرضى.. فالأشعة القوية هي ما تريده وهذا ملائم جداً لعملها.

نظرت كاترينا بشوق إلى «التراڤيرنا»، لكن رامون ودولوريس كانا حازمين. وقالت دولوريس:

ـ العمل أولاً.. بينما الشمس مشرقة.. ولو انتظرنا فقد تخفيها الغيوم.. وأنا أريد التقاط كل الصور اليوم.. وستحتاج إلى تظهير، وهذا يعني أسبوعاً آخر قبل إرسالها إلى الطباعة.. اسمعي، لماذا لا تذهبين إلى التراڤيرنا وتشترين بعض علب عصير البرتقال، وتأتين بها إلى هنا، لتشربيها على الشرفة، فتضفي بهذا لمسة إنسانية على الصور.

ورفعت حاجبها لزوجها:

ـ من المعروف جداً أن فتاة جميلة تجذب الزبائن بسهولة أكثر من منظر الحجر والبلاط.. هل تمانع؟ أعني.. سألتقط صوراً مع كاترينا وصوراً بدونها، وستقرر فيما بعد..

تألق وجه رامون سروراً وهو يرى ابنته وقد اختفت داخل المقهى:

ـ هس! لا تجعلي الأمر يبدو بهذه الأهمية «كاريتامو» وإلا فأن كاترينا ستطالب الشركة بأجر عارضة!

كلمة الدلال الصغيرة لامست قلب دولوريس.. ترجعه إلى ماضٍ مرّ. فمنذ رحلة أثينا، بدا زواجهما طبيعياً، لكنه ينقص شيئاً.. وهي تفكر به، كان ذلك النقص يستقر في أحاسيسها بارداً ثقيلاً، يرسل موجات صقيع في كل شرايينها.. كان رامون الزوج الرائع.. لكن لو أنها تعمقت بإحساسها لوجدت هناك جزء من حياته لا تشاركه به، جزء من عقله لا يدعها أبداً تراه.. لكنه لم يقل لها يوماً إنه يحبها.. ولما فتشت في ذاكرتها نحو البداية، وجدت أنه لم يقل لها هذا يوماً!

دخلا القرية الصغيرة المسماة «لاكا»، وتبعا طريقاً ضيقة تقود إلى الڤيلتين.. سألها:

ـ أيزعجك شيء دولوريس؟

ـ أجل.. أحاول التفكير بأيهما أثقل وزناً.. بيتر أم الكاميرات؟ هذا الصغير أخذ يبدو وكأنه يزن طناً، وذراعاي متخدرتان لشدة التعب. أين كاترينا؟ ظننتها ستلحق بنا سريعاً.

هز كتفيه وهو يضع الكاميرات من يده ويريحها من حمل بيتر الذي تابع نومه دون انزعاج:

ـ ربما تثرثر مع الموجودين في التراقيرنا.

ثم التقط العلبة الكبيرة التي تحتوي على المنصات والمصابيح الضوئية، ليترك لها الكاميرات تحملها، وتابع صعوده في الممر، ثابت الخطى.

مع نوم بيتر على فراش في غرفة شمالية، حيث البرودة والعتمة، تابعت دولوريس عملها.. الڤيلتان كانتا متماثلتين لذا فقد احتاجت فقط للقطات خارجية لواحدة منهما.. ولم تستطع إيجاد عيب في البناء.. كانتا معاً من الداخل والخارج تعطيان انطباع الفخامة.. لكن الطريق الصاعد إليهما.! وقطبت لضيقه وتعرجاته!

أشارت برأسها إلى الطريق:

ـ أرجو أن تفعل شيئاً حيال هذا.. السواح يرغبون في أن يصلوا إلى الباب مباشرة، لا أن يحملوا حقائبهم على أكتافهم لصعود التل!

ـ سيتم تحسين الطريق قبل وصول أول ضيف..

وصمت في منتصف الجملة، بعد دخول كاترينا المفاجيء إلى الشرفة.. كانت ترتدي بيكيني أبيض، من صنع إيطالي، وشعرها المربوط عادة كذنب حصان، كان ينسدل على كتفيها.

صاح رامون بصوت أجش:

ـ غطي نفسك! حين تتزوجين ارتدي ما يسمح لك زوجك لكن طالما أنت تحت رعايتي سترتدين الملابس المحتشمة..

رفعت كاترينا رأسها متحدية:

ـ أوه! إذا كنت تفكر بتاكيس، فسيسمح لي أن أرتدي ما أشاء.. طالما يحصل على مالي..

قاطعها رامون:

ـ ولهذا السبب قررت أن لا يكون لنا صلة بعائلة بابلوڤيلوس ـ أنت بحاجة لمن يستطيع توجيهك جيداً، ويسيطر عليك كاترينا. وتاكيس ليس رجلاً بما يكفي لهذا..

ما تبقى من كلامه اختنق بعد أن رمت ابنته نفسها عليه تصرخ بسعادة:

ـ بابا.. لقد جعلتني أسعد فتاة في العالم! لا أريد الزواج قبل وقت طويل.. فلا تتعجل إيجاد شخص آخر.. ثم، لم أكن أنوي أن أتصور هكذا بالطبع! انتظر لترى..

غابت كاترينا حول المنزل وعادت بعد لحظات وقد غطت «البيكيني» بمنشفة جعلتها كالساري حول جسمها الشاب، ووضعت زهرة خبازي حمراء خلف أذنها.. ولم تهتم دولوريس أكانت زهرة حقيقية أم لا.. وضحكت كاترينا وهي تخرج كأساً طويل الساق من خلف ظهرها.

ـ ولإكمال الخدعة استعرت هذا من التراقيرنا.

كانت تتكلم بكل جدية وهي تجلس على الكرسي الطويل وتتخذ وضعاً مريحاً.

ـ أيبدو هذا جيداً دولي؟

وصلا الڤيلا في كورڤو بعد التوقف في محلات البلدة لإيصال الأفلام الملونة للتظهير.. وقابلتهما يانيس عند أسفل السلم، وهي تؤنب منفعلة.. التأنيب قصد دولوريس ولكنه لم يزعجها، لأنها اعتادت على جفاء يانيس وتخلت عن أي أمل بأن تعترف بوجودها، أو حتى

التحدث إليها.

كانت دولوريس راضية جداً عن عملها اليومي. واستخفها وكاترينا المرح خلال النهار فتركتا رامون في المقهى وأسرعتا إلى مطبخ المقهى لتختارا الطعام، وجبة خاصة جداً طهيت خصيصاً لهم، فالوقت هو فصل الشتاء، وليس هناك زبائن آخرين..

تحت الدوش، غسلت دولوريس شعرها تنظفه من الملح الجاف عليه نتيجة الرذاذ المتصاعد من البحر وهي في طريق العودة.. لم تكن الحياة سيئة على أي حال، فأحياناً القليل المتواضع من السعادة يسعد الإنسان إذا أحسن النظر إليه وتقديره وأحياناً نرى أناساً متخمين بالسعادة ولكنهم يعانون من الشعور السلبي.. وبهدوء خرجت من الدوش، ودخلت غرفة النوم، لتجد رامون ينظر إلى ابنه، وعرفت أنه جاء دورها لتكون كريمة معه.

قالت بابتسامة:

ـ شكراً لك لإنهائك مسألة عائلة بابلوڤيلوس..

رفع رأسه:

ـ أكانت كاترينا تتذمر؟

ـ أجل.

ولوحت بيدها إلى الحمام:

ـ ادخل إلى الحمام الآن، لقد انتهيت.

سألته وهو يخرج من الحمام:

ـ هل سيكون هناك مضاعفات لهذا القرار؟

ـ أشك بأن تحتج عائلة بابلوڤيلوس.. لديهم الكثير من الوقت لعقد اتفاق جديد لتاكيس.. وكاترينا لا زالت صغيرة جداً للزواج لكن هذا لن يرضي يانيس.

تابعت تمشيط شعرها:

ـ وهل هذا مهم؟

ـ قليلاً.. لكن ليس كثيراً..

أنهى ارتداء ملابسه وأكمل:

ـ يانيس هي قريبتها الوحيدة من جهة أمها.. وإلى أن تزوجت مرة أخرى كانت المسؤولة تماماً عنها.. ربما كان يجب أن أهتم أكثر بالطفلة لكنها..

فقاطعته بمرارة:

ـ.. لكنها كانت مجرد فتاة.. لكن حتى البنات يحتجن إلى أب وأم.

وتقدم يقف خلفها ويداه على كتفيها:

ـ أتقولين لي هذا وأنت من حاولت حرمان بيتر من والده؟ أردت أن تربيه بنفسك، وإبعادي عنه تماماً..

ـ لكن، أكان يمكن أن تبتزني وتهددني، وتجبرني على مشاركته معك لو كان فتاة أخرى؟

فقال رامون وهو يحني رأسه إلى أن أصبحت صورتيهما في المرآة جنباً إلى جنب:

ـ أجل.. أعتقد أنني كنت سأفعل.. فأنا أحب أن أتعلم من أغلاطي.. ثم، ماذا كان الناس سيظنون بي؟ هذه جزيرة صغيرة. كنت سأصبح معروفاً بالرجل الذي لم يستطع السيطرة على زوجته.

ـ يا للأمر الكبير! إذن لقد أعدتني إلى هنا لإنقاذ غرورك الثمين؟

وقف وهو يطبع قبلة خفيفة على رأسها:

ـ لا.. آغابي.. لقد أعدت بيتر لأنه لي، وأعدتك لأنك زوجتي.. ولأنك امرأة محبة، ومثلك مثل بيتر، مكانك معي.

تمتمت:

ـ لقد لويت ذراعي!

فضمها إليه:

ـ قليلاً.. قليلاً جداً.. جداً.. ولم يؤلمك هذا كثيراً.. صحيح؟ هل ننزل الآن للعشاء؟

زاد مرحه وهي تدفعه في صدره، وتتخلص من عناقه لتخرج من الغرفة.

كان العشاء لذيذاً.. طعام ايلفيدا دائماً لذيذ لكن يانيس كانت تصب «النكد» على كل شيء.. وابتسمت دولوريس لنفسها.

من ناحية أخرى كانت كاترينا ترى نفسها على قمة العالم، تمرح وتضحك. وهكذا جلست دولوريس تحس بتناوب البرد والحرارة مع هبات السخط من ناحية والدفء وإعصار السعادة من ناحية أخرى. وعبر المائدة كانت عينا رامون تلمعان بسخرية.. وكان كل همه أن يظهر لها السيطرة عليها.

ذهبت كاترينا كذلك إلى المطبخ، أمام دهشة دولوريس، حيث سمعت قعقعة الصحون والأواني.. فهزت كتفيها، ها هي كاترينا تظهر بدورها أنها مطيعة خدومة تراعي الآخرين حين تناسبها الأمور.. لكن محاولة صعود دولوريس إلى غرفتها، أوقفها وضع يد يانيس على ذراعها، فاعتذرت برغبتها في رؤية بيتر، لكنها قالت:

ـ وكأنه يستطيع النهوض من مكانه والهرب بعيداً؟

كان في عيني يانيس بريق، واشتدت أصابعها على معصم دولوريس:

ـ لو أنه يبكي أظننا كنا سمعناه.. ألا تظنين هذا؟

جلست يانيس على مقعد مرتفع الظهر، قرب المدفئة المليئة بالحطب المشتعل.

ـ أهنئك دولوريس.. في الأسابيع القليلة التي أمضيتها هنا.. استعدت معظم مركزك الذي فقدته وأنت هاربة.. ولذلك هو صبي،

وهذا ما أعطاك ميزة كبيرة.. اجلسي.. فنحن بحاجة للكلام.

لأول مرة، ندمت دولوريس على أنها لا تدخن، ففي وقت كهذا، التدخين أمر يمكن أن يشغل يديها:

ـ وهل نحتاجه؟.. تحدثي إذن.. وأرجو أن تعذريني إذا لم أرد عليك كثيراً.. فقد كان يومي متعباً، وأحس بالإرهاق. تكلمي يانيس، فأنا واثقة أن لديك الكثير لتقوليه.. سأجلس فقط لأصغي.

هزت اليونانية كتفيها برشاقة:

ـ حسن جداً.. المسألة هي.. من أين سأبدأ..

ـ منذ البداية.. فهناك تبدأ أفضل القصص.. ثم تستمر حتى النهاية.. ثم تتوقف، وأرجو أن لا تكون قصتك طويلة كثيراً.. لقد حذرتك.. أنا متعبة جداً.

من تحت جفنيها المنخفضين راقبت وجه يانيس، ولاحظت تكور فمها الجميل، وسمعت الشخرة المكتومة الساخطة؛ فنصحت نفسها بصمت «حافظي على برودة أعصابك دولوريس، ولا تكوني حمقاء.. لا تفقدي أعصابك».

أطلقت يانيس الكرة لتتدحرج:

ـ أعتقد أن علي شكرك لإفساد خططي لأجل كاترينا.

ـ لست أنا.. ربما رامون، أو كاترينا نفسها.. لكن قطعاً ليس أنا! مع أنني قلبياً موافقة على التغيير. بالطبع لم أشاهد تاكيس مؤخراً، لكنني حتماً أذكره، لم يكن كآلهة الإغريق!

كانت يانيس تسيطر على أعصابها بشكل جميل:

ـ وهذا بالضبط ما أحاول إيضاحه.. فالزوج لا تختاره الفتاة لمجرد جماله، فهناك اعتبارات كثيرة أخرى.. ووالدا الفتاة..

فقاطعتها دولوريس:

ـ لكنك لست هكذا.. لست والدتها.

نسيت يانيس نفسها لحظات وقالت:

ـ لا دخل لهذا بهذا، فالاتفاق ألغي، وأنا ألومك أنت.. فإلى أن عدت، كانت كاترينا سعيدة تماماً بمستقبلها الذي رُتب لها.

ـ إذا صدقت هذا.. فستصدقين أي شيء! الفتاة لم تكن سعيدة.

كورت فمها مرة أخرى باشمئزاز:

ـ وألومك على هذا أيضاً.. فقبل أن تعودي، تقبلت الأمر. على أي حال الآباء اليونان كانوا يجدون لبناتهم أزواجاً منذ مئات السنين.. وهكذا تجري الأمور هنا، بين طبقات شعبنا.

ـ تعنين أنك تشترين أفضل ما هو معروض.. يا للفتيات المسكينات.. يُبَعن إلى حياة يلاقين فيها التأخر والمهانة.. كم أشفق عليهن! ويضطررن إلى الجلوس في المنزل وإنجاب الأولاد، بينما أزواجهن يتنقلون من وسادة إلى أخرى.. لو كنت والدة كاترينا، لأردت شيئاً أفضل من هذا لها.

قالت يانيس بحلاوة لاذعة:

ـ لكنك لست أمها.

ـ ولا أنت كذلك!

أسكت هذا يانيس مؤقتاً، لكن ليس طويلاً. وجلست دولوريس بصمت يتملكها انطباع برؤية العجلات تدور في رأس يانيس.. إنه دماغ من النوع الرقيق المتماسك.. لكنه ليس بالغ الدقة والحساسية.

تأوهت المرأة اليونانية بسخط وهي تعبث بمقبض حقيبة يدها:

ـ كل هذا لا معنى له. لقد غير رامون رأيه، وقراره نهائي.. ومع كراهيتي لهذا فمن الأفضل لنا أن نترك البحث في موضوع كاترينا، ونتكلم عنك.

رفعت دولوريس حاجبها:

ـ عني؟ لا تقولي لي إن لديك خططاً لي؟

فأجابت يانيس بجدية:

ـ لا.. لكنني ولوقت طويل، ظننتك غير سعيدة، كنت تخفين الألم جيداً، لكنه موجود في عينيك.

فتحت حقيبتها، وأخرجت منها شيئاً لمع بلون أزرق وذهبي على وهج النار:

ـ ظننت أن هذا قد يسعدك.

تقبلت دولوريس جواز سفرها بارتباك، تقلبه بين أصابعها: شكراً لك.

فتحت صفحاته تكشر في وجه صورتها منذ أربع سنوات. أمن الممكن أن يتغير مظهر المرأة بهذا القدر وفي فترة قصيرة كهذه؟ أم أن الفتاة ذات الحادية والعشرين التي في الصورة هنا، لم يعد لها وجود؟

وسألت:

ـ هل لي أن أعرف من أين حصلت على هذا؟ أم إنها إحدى تلك الأشياء التي ترغبين في البحث بها؟

فلوحت يانيس بيدها مع نظرة تعالٍ:

ـ الأفضل أن لا تسألي. أحياناً يمكن للحقيقة أن تجرح.

تساءلت دولوريس ما إذا كان يعني هذا أن المرأة مكلفة بإعطائها الجواز. صحيح أن هذه يمكن أن تكون طريقة رامون، لكن من ناحية أخرى، ستكون طريقته المثلى أن يرمي الجواز في درج مفتوح، لعلمه أن لا جدوى منه لها.. وبهدوء، مدت يدها بالجواز.. وكلها إعجاب بثبات يدها.. وقالت بهدوء:

ـ أعيديه مكانه أرجوك.

لن تفقد أعصابها وتبدأ الصياح.. هذه المرة ستكون رزينة باردة كمنافستها.. وقالت بوقار:

ـ أترين.. لا لزوم له بالنسبة لي.. ليس وحده.

راقبت يد يانيس تعود إلى حقيبتها ولمحت رزمة من الأوراق النقدية اليونانية:

ـ لا.. لا أعني المال.. لهذا لا تهينيني في عرض أي مبلغ علي.. كل ما في الأمر أن جواز السفر لا فائدة له دون أوراق بيتر. فإذا كنت سأرحل، سآخذه معي، وإذا لم أستطع سنبقى معاً. إنه أحد أهم الأشياء في حياتي، ولن أتخلى عنه.

لم تحاول يانيس أخذ جواز السفر، فوقفت دولوريس، وسارت الخطوات التي تفصلهما ورمته في حجرها الحريري، وتابعت ببرود ورقة:

ـ لست أدري إذا كنت تلعبين لعبة رامون أم لا.. لكنني واثقة من أمر واحد.. ابني وأنا، إما أن نذهب معاً أو نبقى معاً.. عمت مساء!

أحست أنها ميتة من التعب حين وصلت غرفة النوم، نظرة سريعة إلى المرآة، أظهرتها كالميتة، لكنه لم يكن تعباً جسدياً.. بل تعباً نفسياً.. أحست وكأنها لم تعد تملك الطاقة على القتال.. وكان رامون في الفراش، وبيتر مستلقٍ على ركبتيه المرتفعتين، وكان الرجل وابنه ينظران إلى بعضهما جيداً.

نظر رامون إليها نظرة لا تعبر عن شيء، من المستحيل أن تعرف ما إذا كان هو الذي خطط لمسألة الجواز أم لا.

ـ كنت أعمل على أن أبقيه صامتاً لأجلك.

ـ أبقه هكذا لمدة أطول.. أخبره قصة حياتك بينما أستعد للنوم..

فمن يعلم، فقد يجدها مثيرة للاهتمام.

كانت قد بدأت تتمنى لو أنها لم تتصرف بشكل لائق هكذا. على الأقل، كانت تتمنى مبارزة في الصباح، لا بد من وجود منتصر فيها ومهزوم.. لكن الحرب المهذبة بالكلمات التي خاضتها لتوها مع يانيس كانت عقيمة.. لم تعطها الرضى، بل تركتها حائرة بسؤال زائد

عما كان في رأسها ساعة بدأت الحديث معها.

لم يربح أحد أو يخسر أي شيء.. والموقف لا زال كما هو..

* * *

٩ ـ شرك الخداع

كانت نيكول ترتدي مريلة أكبر منها حجماً تصل إلى كاحليها، تخفي تماماً أطراف ثوبها الزهري المطبع بالأبيض.. لكن، كان يحيط بها جو من القناعة والرضى ينعكس منها على كل شيء وهي تتجول في غرفة النوم.

ولم يبد بيتر هادئاً في ذلك اليوم.. فلقد تناول رضعته كاملة، واغتسل وغيّر، لكنه رفض العودة بهدوء إلى مهده.. كل الجهود الذي بذلت لوضعه فيه كان نتيجتها صياح الغضب واحمرار الوجه، ولمعان عينيه المتحولتين بسرعة إلى اللون الأسود، عند الغضب.

قالت نيكول الخبيرة رأيها الصائب:

ـ ليس مريضاً.. سآخذه إلى الشرفة المسقوفة في أسفل وأضعه في عربته «كيريا».. هناك سيلهو ولن يزعجه الطقس فهو دافىء، كما أن لا مطر هناك مما يساعده على التسلية بمراقبة الأشجار.

ودون انتظار لجواب الأم، وضعت الطفل على وركها، فتوقف فجأة عن الصراخ، وخرجت به..

تنهدت دولوريس ارتياحاً، وجلست تهتم بأعمال صغيرة فترتب الغرفة تحضيراً لتنظفها المرأة المستخدمة لهذا الغرض. رائحة القهوة «الطازجة»، والخبز «الطازج» الساخن تصاعدت إليها لتجعل اللعاب يسيل من فمها.. وحين أنهت وضع آخر قطعة ثياب في سلة الغسيل،

أسرعت إلى الطابق السفلي.. لكن لتقف في منتصف الطريق عند سماعها لصرخة حادة وأصوات غاضبة.

ليس بيتر.. فالشرفة في الأسفل هادئة، والأصوات قادمة من فوق.. كاترينا، وشخص ما يتقاتلان قتال «قطط في زقاق».. هزت دولوريس كتفيها، فالأمر لا يعنيها، وتابعت النزول.. لكن لتتوقف مجدداً لصرخة حادة أخرى مزقت سكون المنزل، تبعتها مشاحنة كلامية.. كلها باليونانية.. لكنها بدت عنيفة.. أصغت دولوريس إلى الصوت الآخر غير صوت كاترينا.. إنهما كاترينا ويانيس تتشاجران بشراسة، والتوى فم دولوريس بابتسامة.. كاترينا ووالدها يتشاركان نفس الطباع الحادة، لكن رامون يكبح أطباعه، بينما ابنته لم تتعلم بعد كيف.. لكنها ستتعلم، مع الوقت.. وتقدمت قدماها إلى الدرجتين الباقيتين.. حين أوقفها مجدداً صوت تهشيم الزجاج وتساقطه.

الزجاج يتطاير وبيتر على الشرفة في الطابق الأسفل.. وقد يصاب بأذى.. واستدارت خائفة، وصعدت السلم مجدداً.. وكان قرعها للباب مجرد رسميات، ورأت الباب ينفتح تحت يدها فسارعت إلى غرفة النوم بوجه شاحب وعينين غاضبتين.

ـ ماذا يجري هنا بحق الجحيم؟

رفعت صوتها ليُسمع فوق صوت يانيس الغاضب وصيحات كاترينا الحادة.. رفست بقايا مزهرية من الكريستال صائحة:

ـ من رمى هذه؟ بيتر في الأسفل على الشرفة، كان بالإمكان أن تقتلاه أو تتركا فيه أثراً مدى الحياة!

استعادت يانيس روعها أولاً، ولوحت بمغلف بني كبير:

ـ هذا ما يجري هنا.. هذا! لقد وصل في الصباح الباكر.. وهو يظهر ما تقود إليه هذه الحرية الحديثة للفتيات..

كانت كاترينا ترتدي بنطلون «جينز وتي شيرت».. لكنها كانت

رابضة على السرير.. غير آسفة أو نادمة، وشديدة الغضب..
وبدا الكلام اليوناني الذي يتدفق من شفتيها سيئاً جداً، إذا لم يكن أكثر سوءاً من كلام يانيس.. لكنه كان قطعاً إنكاراً من نوع ما.
واستمر المغلف يلوح أمام أنف دولوريس.. دون تفكير، أمسكت به تنتزعه من يد المرأة وتقلبه لتعرف أنه مفتوح، وأنه موجه إلى كاترينا.

رفعت دولوريس أنفها وكأن هناك رائحة كريهة في مكان ما: وهل لديك عادة في فتح أشياء عليها أسماء أشخاص آخرين؟

لكن يانيس لم تبد أي خجل.. بل بدت منتصرة، وقالت بلؤم:

ـ فتحته لأنني عرفت ما بداخله.. ولو أعطيت المغلف لها، لمزقته دون أن تفتحه، لأنها تعرف محتوياته. وسيرى رامون هذا.. وربما سيدرك أنني كنت على حق حين قلت له إنه يسمح لابنته بالكثير من الحرية.. لقد تصرفت كاترينا بطريقة سيئة.. ويجب أن تلقى العقاب.. وسأتأكد من عقابها بنفسي.

لم تصل دولوريس إلى قرار، فالقرار بدا في وجهها:

ـ لن تفعلي شيئاً كهذا. ليس قبل أن أعرف كل شيء.. أما العقاب، إذا كانت تستحق، فسيأتي من والدها، ولا شأن لك فيه!

وحمل صوت يانيس لذة «سادية»:

ـ أوه.. ستنال العقاب.. افتحي المغلف لتري بنفسك!

رفعت دولوريس نظرها إلى كاترينا، تُظهر الأدب:

ـ هل تسمحين؟

رفعت كاترينا وجهها المبلل بالدموع وهزت رأسها.. تتمتم مدافعة عن نفسها:

ـ لكن، لا يمكن أن تكون هذه أنا.. أنا لا أفعل شيئاً كهذا.. لقد قلت لروي إنني لن أقف له ليصورني.. ولا شك أنه التقطها دون

معرفتي..

وظلت دولوريس على عبوسها وهي تنظر إلى الصورة.. إنها صورة جيدة، عمل خبير.. ليس في طريقة أخذها فقط، بل بطباعتها أيضاً.. خلفية الصورة ضبابية عمداً كي تبرز جيداً صورة الفتاة شبه العارية.. لقد شاهدت من قبل أسوأ من هذه، لكنها لم تشاهد أفضل منها..

وبتنهيدة خفيفة، أعادت الصورة إلى المغلف، ورمتها إلى أسفل سرير كاترينا:

ـ سأنظر إليها عن كثب أكثر فيما بعد.. لكن، في هذه الأثناء..

رفعت يدها تصمت يانيس:

ـ لا أريد أن يقال شيء حول هذا.. والآن، دعينا وحدنا يانيس.. كاترينا وأنا لدينا بعض الكلام.. وبما أن هذا لا يعنيك، فلا حاجة لأن تبقي.

صاحت يانيس:

ـ بل يعنيني! كاترينا هي...

قاطعتها ببرود، وقحة:

ـ وفري علي سماع تفاصيل شجرة العائلة..

وخطت نحو المرأة الأخرى بثبات، وعيناها تلمعان غضباً يتجلى فيهما بريق المعركة، وقالت باختصار: أخرجي!

ومع إغلاق الباب خلف يانيس استدارت إلى كاترينا:

ـ والدك ذهب إلى باكسوس؟

فهزت كاترينا كتفيها، فأكملت دولوريس تسأل:

ـ ألا تعرفين؟

ـ لم أره هذا الصباح.. وسألت ايلفيدا فلم تكن واثقة إلى أين ذهب.. ربما إلى باكسوس ربما إلى كيركيرا، أو حتى أثينا.. ولم يقل

متى سيعود.

ـ يا للرجال اليونانيين وأعمالهم اللعينة.. أحياناً أعتقد أنهم يعيشون في عالم خاص بهم.. ولكن هذه الصورة..

لمست المغلف باشمئزاز وكأنه ملوث:

ـ ستجعله يجن غضباً.. وتعرفين هذا.. يا إلهي! لقد جن غضباً بما يكفي بالأمس حين رآك بالبيكيني!

فاستعادت كاترينا رباطة جأشها:

ـ أيمكننا أن نحرقها دولوريس؟

وقضمت أظفرها:

ـ لا نتيجة تذكر لهذا.. فلا فائدة من حرق الصورة وروي وايلد يحتفظ بالصورة السلبية «النيكاتيف».

وأخذت المغلف وأخرجت الصورة مجدداً، تتفحصها:

ـ لا أظنه طبع هذه على «الفوتوغرافيون»، خلفية الصورة ليست بعيدة عن التركيز حقاً.. ويجب أن يفعل هذا بنفسه..

ـ إنه يفعل هذا بنفسه.. فلديه غرفة مظلمة.

ـ أين؟

ـ في الترافيرنا حيث يعيش بالطبع. لديه غرفة نوم، ومكان صغير فيه مغطس يدوي صغير وأشياء كهذه.. رأيتها مرة وأنا أنتظره.. يوم طلب مني النوم معه.. وغضب حين قلت له إنني لا أريد..

هزت دولوريس رأسها تفهماً:

ـ هناك أوقات يا فتاتي.. حين أظنك فيها كبيرة العمر كالخطيئة نفسها. الآن اسمعي كاترينا.. سأذهب إلى باليوكاستريتسا وإذا سنحت لي الفرصة، سأبحث عن تلك الغرفة المظلمة وأجد الفيلم السلبي.. إذا فعلت، سننسى كل شيء عن هذا.. والدك لن يعرف أبداً.. لكن إذا لم أنجح، أخشى أن تكوني مضطرة إلى إخباره

بنفسك، وأن تأملي أن يفهم.

عادت دولوريس إلى غرفتها، لتفكر من جديد.. ستحتاج إلى عذر لتدخل مكان إقامة روي.. ثم التمعت عيناها لرؤيتها علبة المصابيح المشعة... هذا سيفيدها.

حين نزلت تحمل العلبة، كانت كاترينا تنتظرها في الأسفل عند السلم الخارجي وعربة الشاطىء واقفة بالانتظار.

ـ أعرف أنك مستعجلة دولي، لكن هناك شيئاً يجب أن أقوله لك.. سأجيء معك حتى «كريني» كي لا أؤخرك، وسأخبرك بما أريد ونحن في الطريق.

ـ المزيد من الشرور؟ حسن جداً، لكن اختصري.. ماذا هناك بعد؟

ومن طرف عينها رأت دولوريس دمعة على خد كاترينا.

ـ أكاذيب.. كنت ياتسة دولي.. أنت وبابا.. لم يبدُ أنه يحبني.. بعد زواجك خاصة.. أحسست بالغيرة، واعتدت أن أفعل أشياء رهيبة كي يشعر أحد بوجودي.. أتذكرين عامل المركب الشاب.. دولي.. ذلك الذي كنت سأهرب معه، وكيف منعتني أنت؟ لقد كذبت عليك يومذاك. حاولت التظاهر بأن هذا لم يحدث، لكنني أعرف أنه قد حدث.. ومن الأفضل أن تعرفي الحقيقة عني.. فلا أظن أنني فتاة طيبة.

قالت دولوريس بخفة:

ـ حوالي المعدل العام تقريباً.. وأية أكاذيب؟

ـ حول بابا ويانيس، لكن ليس حول أنها لا تنجب الأطفال، فهذا أمر يعرفه الجميع.. لكن الذي لم يكن صحيحاً هو ما قلته عن أنهما عاشقان.. هذه قصة اختلقتها بنفسي، وفكرت أنني لو قلتها لك فسترحلين، وسينساك أبي، وسيعود كل شيء على ما كان عليه. لكن،

قلبياً كنت أعرف أنها قصة شريرة، وأنك قد لا تصدقيني.. لكن حين غضبت جداً، قلتها لك.. ولم تصدقيني.. أعرف أنك لم تصدقيني.. أعني، لا يمكنك تصديق أن بابا يمكن أن يفعل شيئاً كهذا.. لقد قرأت القصة في مجلة.. إنها مجلةٌ ليانيس.. أنت لم تصدقيني.. صحيح؟

بقيت دولوريس مرحة:

ـ ولا كلمة واحدة.. كنت معتادة على اختلاق القصص حين كنت..

كادت ستقول طفلة لكنها غيرت كلامها:

ـ حين كنت في مثل عمرك.. معظم المراهقين يفعلون هذا.. وأنت لست شيئاً غير عادي.

وسمعت صوت تنهيدة ارتياح.. كل ما يهم أن لا تشعر كاترينا بعقدة الذنب.. ورسمت ابتسامة:

ـ كانت قصة جيدة بالطبع، ورويتها بشكل جيد، لكنها لم تكن تتطابق مع الوقائع، لذلك لم أصدقها.. أيمكن هذا؟ سأنزلك هنا.

أوقفت العربة، وراقبت كاترينا تنزل وتقف جانباً تلوّح لها وهي تنطلق.

راجعت دولوريس خطتها، وأنبت نفسها على وساوسها الزائدة. كان يمكنها أن تستفيد من وجود الفتاة معها، لكن من ناحية أخرى، إذا حدث شيء مفاجيء، فسيكون وجود الفتاة معها كارثة.. ثم فكرت بما ستفعل لو أن روي موجود في مكان سكنه، وهذا أمر لم تفكر به من قبل، حتى خطتها باستخدام لفافة فيلم غير مستخدم كذريعة لدخول الغرفة المظلمة. كانت الخطة ترتكز على عدم وجوده هناك، أما إذا كان هناك.. وعضت على شفتها دون وعي.. سأضطر إلى تهديده برامون، والقليل من العنف الجسدي.

أوقفت العربة في موقف للسيارات تابع للفندق، فليس من الحكمة إيقافها قرب التراثيرنا، فهي معروفة جداً.. ثم تمشت تعطي الانطباع بأن لديها متسعاً من الوقت.. أخيراً دخلت التراثيرنا بتحية كالميريا عفوية لصاحبها تتساءل ما إذا كان يعرف من هي، أم يظنها إحدى السائحات.

قالت بلهجة مرهقة مقصودة:

ـ قهوة أرجوك..

وجلست تحاول التظاهر بالضجر إلى أن عاد صاحب المقهى بالقهوة.

ـ كيري.. جئت لأرى الكيريوس «وايد» أتسمح أن تقول له إنني هنا؟

هز صاحب المقهى رأسه بأسى:

ـ عفواً.. كيريوس «وايد» ليس هنا كيريا.. اليوم ذهب مع مجموعة زوار في جولة صغيرة إلى كيركيرا، سيعود هذا المساء، أظن.

فحجبت ارتياحها بنظرة قلق:

ـ يا إلهي! الكيريوس كان سيسمح لي باستخدام غرفته المظلمة.

فتحت حقيبتها وأخرجت لفافة الفيلم.. وأملت أن لا يلاحظ الرجل أنها غير مستخدمة.

ـ لكنني لا أظن أنه سيمانع أن أستخدمها وهو غير موجود.. لو أنك أريتني الطريق..

لاحظت التردد على وجه الرجل فأكملت بسرعة:

ـ لن أطيل البقاء، يجب أن لا أتأخر، فزوجي كيريوس رامون ماركوراس، سيأتي ليأخذني بعد قليل.. وإذا لم أنته حين يصل، أتسمح أن تقول له أن ينتظرني أرجوك؟ وبما أنني هنا، سأعيد إلى

كيربوس وايد بعض المعدات التي استعرتها منه، ومن الأفضل أن أتركها في غرفته، فالمحتويات قابلة للكسر بسرعة.

كتمت أنفاسها منتظرة، وكانت تدعو بجهد.. إذا لم يكن أحد يعرفها هنا، فالجميع يعرف رامون ويعرف أن له زوجة إنكليزية.. وأكملت بحزم.

ـ لو أرشدتني إلى الطريق، وحملت هذه العلبة لي، أرجوك.

ونجح الأمر! والتقط العلبة، فتركت دولوريس قهوتها ولحقت به بسرعة، قبل أن يغير رأيه.

مكان سكن روي وايد كان مرتباً نظيفاً.. غرفة النوم والجلوس معاً كانت تحتوي على الضروريات فقط، سرير، كرسي، طاولة، خزانة، وكمية رفوف كبيرة على جدار واحد مليئة بالكتب والمجلات. أما الغرفة الصغيرة الملحقة بها فلم يكن فيها نافذة، وما كان أساساً مكاناً للغسيل، حولوه إلى غرفة مظلمة معقولة التجهيز.. وروي وايلد ليس أحمقاً ليترك صوراً مشكوكاً بها ليراها أحد.. الصور السلبية لا بد مخبأة، وفتشت في الغرفة المظلمة، فلم تجد فيها مكاناً لتخبئة شيء.

نظرت إلى ساعتها، ما زال لديها الكثير من الوقت، أكثر من ساعة ونصف، لتعود إلى الڤيلا. وما تأمل أن تجده، لا بد مخبأ في مكان ما في غرفة النوم.. فتنهدت بيأس، وعادت إليها. لن يكون الأمر سهلاً، لكن لو أنها بدأت التفتيش بنظام..

وإذا بطرق على الباب جعلها تجفل ثم تندفع بسرعة إلى الغرفة المظلمة حيث أنارت المصباح الأحمر، ثم خرجت لتفتح الباب، متظاهرة بالانبهار قليلاً، وأنها تجفف يديها بمنشفة.. لكنه كان صاحب «الترافيرنا» يحمل لها إبريقاً آخر من القهوة وفنجاناً وصحناً.

ابتسم الرجل لها:

ـ كيربوس وايلد يطلب القهوة دائماً وهو يعمل.. هل انتهيت

كيربا؟

أجبرت نفسها على رد ابتسامته:

ـ ليس بعد، لن أتأخر.

بعد أن سمعت وقع قدميه يبتعد عادت تجلس على حافة السرير، وصبت القهوة لنفسها بيدين بعيدتين عن الثبات.. متوترة كقطة خائفة، وفي رأسها يدور جزء من نص أدبي يقول: «.. نحن ننسج شركاً متشابكاً حول أنفسنا حين نبدأ في الخداع».. إذا كان الأمر هكذا.. فهي تتمنى أن تمضي حياتها كلها دون خداع.. فهي لا ترغب أن ترتجف كورقة شجر، وأن تتمنى لو أنها لم تورط نفسها!

الآن، لتبدأ التفتيش، الفراش أولاً، تركت الفراش، وأعادت ترتيب الوسادة، ثم أدارت اهتمامها إلى الخزانة. كانت واسعة، وفارغة تقريباً، وهذا يبقي أمامها الرفوف بارزة.

وقالت لنفسها: كوني منظمة. ابدأي من البداية.. وفعلت.. في منتصف الطريق مع رزمة مجلات، وصلت إلى مغلف كبير، يحتوي على سبع أو ثماني صفحات منفصلة، فجذبتها منه لكن، لا شيء سواها، وأمسكت الصفحات لتدخلها المغلف، وكانت مطوية، ففتحتها لتشهق، إذا لم تجد السلبيات فقد وجدت هنا شيئاً.. الصور عارية وفنية جداً. لا شك أنه يحتفظ بها للذكرى.

وضعت المغلف بمحتوياته جانباً، وتابعت التفتيش وكأنها أرتب مذعور، مغلف آخر برز بعد قليل، أصغر حجماً، وتسللت السلبيات منه..

واحدة بعد واحدة، رفعت السلبيات نحو الضوء.. كلها لنساء عاريات، أو تقريباً عاريات وكلها ملتقطة هنا.. في كورڤو، وصورة كاترينا بينها.. وأحست دولوريس بالاشمئزاز وبالارتياح أيضاً..

مهمة أخيرة.. التفتيش عن صور مطبوعة أخرى، فلا فائدة من

تدمير هذه السلبيات إذا كان هناك صور مطبوعة، يمكن تصوير نسخة عنها.. وبدأت العمل، ونصف ساعة لتكمل تفتيشها في الرفوف، حيث وجدت مغلفاً آخر فيه صور مطبوعة لكنها أكملت تفتيش الرفوف إلى أن تأكدت أن ليس هناك من مزيد.

وضعت السلبيات في حقيبتها، لكن قبل أن تخرج، ألقت نظرة أخيرة إلى الصور.. حسب حكمها وخبرتها، ما من أحد من الفتيات بما فيهن كاترينا، كن يعلمن أنهن يصورن.. ففي وقفتهن قبول عفوي غير مكترث، لا يأتي أبداً إلا مع غفلة كاملة.

إنهن مراهقات من أسر يونانية عريقة.. فتيات لن يتردد آباؤهن في ضربهن حتى الموت لو اكتشفوا أمرهن.. فجأة فقدت الصور كل سحرها وأصبحت مثيرة للتقزز.. حتى أنها أمسكت بها بين أصابعها من الزاوية وكأن فيها وباء معدياً وعادت إلى الغرفة المظلمة.. حيث وجدت سلة مهملات مناسبة للجنازة.

الولاعة الرفيعة التي جاءت بها معها، فشلت في الإشعال أول مرة، فأعادت الكرة، لتقفز شعلة الغاز حية لاهبة.. واحدة بعد واحدة، مررتها على زوايا الصور، ورمت كل واحدة منها إلى سلة المهملات المعدنية وهي تشتعل، لا يجب أن يبقى أي شيء سوى الرماد، أنهت الصور وبدأت بالسلبيات.

وهي ترمي آخر صورة، انفتح باب الغرفة المظلمة، فاستدارت لتجد رامون يقف هناك مرفوع الحاجبين ملتوي الفم بابتسامة:

ـ ماذا تفعلين، آغابي؟

صاحت ارتياحاً:

ـ أحرق المكان، وأنت ماذا تفعل هنا؟

فاستند إلى إطار الباب:

ـ لقد تركت لي رسالة مع كوستي.

ـ كو.. كوستي؟

ـ صاحب المقهى.. كنت ماراً فناداني.. هل هذا مكان مفضل لك؟ يبدو أنك تأتين إلى هنا دائماً.

ـ وماذا تفعل هنا؟ ألا يمكنك أن تدع أحداً يعرف أين ستكون في أي وقت من الأوقات؟ استيقظت هذا الصباح لأجدك قد خرجت.. أنت كالرجل الخفي. لا أحد يعرف أين أنت، لأنك لا تهتم أن تخبر أحداً بذلك ولا متى ستعود..

فرد بصبر ظاهر:

ـ ذهبت إلى كيركيرا.. كنت أنوي أن أعود قبل أن تستيقظي ولم أكن أرغب في إيقاظك قبل خروجي.. وكان هذا تفكيراً مصيباً مني.

ـ هذا ما أعتبره تغييراً!

ـ ومتى كنت لا أفكر بك؟ هل حصلت مني يوماً على أقل من الحنان والدعابة؟

ـ ها! بل تهديدات!

استدارت على عقبيها ليصبح ظهرها إليه.. أدهشها سرعة تعاظم الغضب.. ومن لا شيء يذكر. وابتلعت غصة في حلقها، وسألت بحذر:

ـ هل عدت إلى هنا رأساً من كيركيرا؟

وأحست بأنفاسه على جانب عنقها:

ـ لا.. ذهبت إلى المنزل مباشرة.

ـ أوه!

ـ أجل.. أوه! ماذا كنت تفعلين «جينيكامو»؟ تركت المنزل هادئاً مسالماً هذا الصباح لأجده واقعاً في كارثة حين رجعت.. ايلفيدا ترمي الأشياء في المطبخ، كاترينا ويانيس تحبسان نفسيهما في غرفتيهما.. الوحيدة الطبيعية كانت الصغيرة نيكول، التي كانت تلاعب بيتر فوق

بساط على الشرفة.

ـ أوه!

ـ أهذا كل ما تقولينه دولوريس؟ هل يساعدك على الكلام لو قلت لك إنني انتظرت إلى أن خرجت كاترينا من غرفتها بقصة مشوشة.. شيء عن أن أحداً لا يصدقها، وأنك ذاهبة إلى معركة.. وهناك صورة في القصة، لكنها لم تستطع أن تظهرها لي لأنك أخذتها معك. ففهمت مما قالت أن الأمر له علاقة بروي وايد.. وتوسلت إليّ أن أذهب على الفور لإنقاذك.

قالت ساخطة:

ـ أنت تنقذني؟ أنا هنا لأنقذ كاترينا.. وأنقذك! تعال وانظر ما وجدت!

أخذت تفتش عن المغلف الذي يحتوي على الصور المنتزعة من المجلات، وفتحت الصفحات، لتضعها أمام أنفه:

ـ أترى هذه؟

صمتت تراقبه وهو يقلّب الصفحات، ثم يرميها على الطاولة وينفض أصابعه وكأنه لامس شيئاً قذراً:

ـ لست بحاجة إلى خيال.. وأنت تعرفين هذا!

فاحمر وجهها، لكنها عادت إلى الهجوم.

ـ أنت لا تفهم.. روي وايد ليس من النوع الخيالي أيضاً.. إنه هو من يلتقط هذه الصور.. وهذه بعض مما يلتقطه وينشره. انظر إلى اسمه تحت كل واحدة بأحرف صغيرة. وهو لا يستخدم عارضات، مثله مثل أي مصور شريف.. إنه متلصص.. صحيح أنه جيد في عمله، لا أشك في هذا.. لكنه قذر!

صمتت مترددة كيف تكمل.. كل شيء يعتمد الآن على مدى ما يعرفه، وعلى ما قالته له كاترينا.. ولا جدوى إطلاقاً، من توريط ابنته،

إذا لم يكن ضرورياً.. ستوفر عليه هذا الإذلال لو استطاعت.

قالت بسرعة:

ـ ألا يجب أن نخرج من هنا؟ أعني أن صاحب المقهى كان لطيفاً ومتعاوناً، وتركني أدخل.. لم أكن صادقة معه.. قلت إن روي أعطاني الإذن لاستخدام الغرفة المظلمة.. لكن يجب أن نخرج قبل أن يعود.

وقف في منتصف الغرفة وكأنه يستعد لانتظار طويل:

ـ لا.. سنبقى دولوريس.. إلى أن أحصل على الحقيقة.. وإذا لم أحصل عليها منك، سأنتظر وصول وايد وأنتزعها منه!

ـ لن نستطيع البقاء.. على الأقل لن أستطيع أنا. يجب أن أعود إلى بيتر..

أمسكت حقيبتها محاولة تجاوزه نحو الباب.. لكن يده أمسكت خصرها وأوقفتها بحزم.

ـ الحقيقة دولوريس.. أنت لم تأتي إلى هنا لتكذبي وتدخلي إلى مكان سكن رجل دون سبب معقول.. وأريد أن أعرف هذا السبب.. لذا ستبقين إلى أن تقولي لي الحقيقة.

فأخذت تقاومه محتجة: لا!

ثم جمدت لصوت وقع أقدام على السلم.. وانفتح الباب.. ليقف روي وايد هناك.

* * *

١٠ ـ هل تثق به؟

ابتسم روي ابتسامة عريضة وهو يتقدم إلى الداخل وعيناه تتألقان بنظرة ابتهاج:

ـ حسن جداً.. هذه سعادة حقيقية.. قال لي كوستي إن لدي زوار.. لكنني لم أتوقعكما. طلبت منه إرسال بعض المرطبات لكن..

وابتسم لدولوريس.

ـ أعتقد أنك ترغبين في شيء آخر سيدتي؟

أقلقت البسمة دولوريس، كانت باهتة مصطنعة.. وقالت بهدوء:

ـ شكراً لك.. لكن ليس لهذا ضرورة.. لقد جئتك بهذه.. وأنا.. أعني نحن، أردنا أن نشكرك شخصياً..

تلاشى صوتها بعد أن أدركت أن روي لم يكن يصغي لها. فقد كان كل اهتمامه منصباً على الصور التي رماها رامون على الطاولة، ولاحظت نظرته السريعة إلى رزمة المجلات على الرف.

لكنه لم يبد اضطراباً، بل بدا مسروراً..

ـ كنتما تتفرجان على بعض أعمالي؟ إنها جيدة جداً.. ألا تظنان هذا؟

كسر رامون الصمت الذي تلا السؤال:

ـ زوجتي قالت لي إن التقنية والتكوين أفضل بكثير مما توقعت..

لكنها كانت تظنك هاوياً.. أما الآن، كما يبدو، عرفنا أنك محترف.. السبب كما أظن لأنك لا تستخدم عارضات محترفات.

كانت دولوريس تثبت نظرها على وجه روي.. فأدهشها التغيير الذي حدث في تعابيره... فقد اختفت البسمة العريضة غير المكترثة وأصبحت قسمات وجهه كعينيه.. باردة، جامدة، وشريرة. وتزايد الشر في عينيه وهي تراقبه، واقترب قليلاً من كومة المجلات.. لينتقد دولوريس ساخراً:

ـ أعتقد أنك كنت تسترقين النظر سيدتي.

استولى الخوف على دولوريس فجأة فهذا الرجل ليس من النوع الذي يسقط وحده، بل يجرّ غيره معه دون اهتمام بمن يمكن أن يتأذى.. أخذ يمرر أصابعه على المجلات إلى أن وصل المكان الذي كان فيه المغلف، واندس اصبعه بينها ثم سحبه، ودون وجل قال:

ـ أجل.. كنت تتلصصين!

لكن رامون سهّل الأمر له:

ـ وصلت زوجتي إلى هنا قبل قليل مني، وأخشى أن تكون وجدت بعض النماذج من عملك، وقررت أنها غير مقبولة.. وأعتقد أنها أحرقتها.. وغني عن القول، أنني استحسنت تصرفها.

ـ أحرقت الصور سيدتي؟

هزت رأسها بحزم، ورأت الشر يزداد في عينيه.

ـ الآن هذا أمر مؤسف.. هذه الصور أفضل أعمالي.. خاصة صورة كاترينا.. وأعتقد أنني لست بحاجة للبحث عن السلبيات...؟ أنت مثلي سيدتي محترفة.. وتعرفين تماماً عما تبحثين عنه وتدمرينه..

لكن كلماته كانت تقع في أذن صماء، فقد كانت دولوريس تصلي لله أن تحدث معجزة منذ دخل روي عبر الباب، وهي تتقدم إلى

النافذة الطويلة التي تفتح على الشرفة الصغيرة حدثت المعجزة.. وصدمتها كالصاعقة، تنتزع الخوف منها إلى أن أصبحت باردة هادئة.. وفي الهدوء، سمعت رامون، وبكل أدب ورقة، وبإنكليزية أنيقة، قديمة الطراز، جعلتها تبتسم.. مع أنها كانت تحس بالألم الذي سببه كشف روي لزوجها.. نظرت إليه، إلى وجهه الأسمر الساحر، وأحست بالارتياح.. لا شيء فيه.. لا غضب ولا ألم.

كان يقول:

ـ زوجتي، التي أثمّن رأيها في هذه المسألة، قالت لي إن الصور التي تفتخر بالتقاطها، مأخوذة دون علم، أو رأي، من صاحباتها.. هل أنا على حق آغابي؟

وابتسمت له:

ـ أجل.. ومن هنا.. كما أعتقد، هناك منظر كامل على جزء من الشاطىء ليس بعيداً جداً.. كاميرا جيدة مركزة، وعدسات بعيدة المدى، وبضع فتيات يسبحن باكراً، وأفلام سريعة توقف الحركة.. الأمر سهل جداً.

انتهز روي فرصة سكوتها لالتقاط أنفاسها:

ـ لديك طريقة كريهة في وصف الأشياء سيدتي.. كلنا نحتاج لأن نكسب رزقنا. لقد لاحظت الطريقة التي تمسكين بها حقيبتك.. وأنا لا أظن أنك أحرقت السلبيات أبداً.. لذا أعتقد أنني سأستعيدها.. إنها ملكي.. سيدتي.

لم تخف دولوريس، لكنها اختبأت بسرعة خلف زوجها تحتضن حقيبتها جيداً وتترك ما تبقى لرامون.

نظر زوجها إليها:

ـ ألم تحرقيها كلها؟

ـ لم يكن لدي وقت.. لقد دخلت ما إن أنهيت حرق الصور،

كنت أنوي التخلص منها فيما بعد لأنها تشتعل بقوة ولم أرغب في إشعال حريق في المكان.

ـ أعطني إياها.

فهزت رأسها رافضة:

ـ لا رامون.. لا يمكنك إعطاؤه السلبيات، بإمكانه طبع الكثير من الصور.. وسيضيع كل ما فعلته سدى..

ـ لن يأخذها..

وقرّب منفضدة السكائر منه:

ـ ستكون لي السعادة الحقيقية في مراقبة وجهه وهي تحترق.

وفتح لهيب الولاعة، فأعطته دولوريس المغلف الصغير.. وأعجبت لثبات يديه وهو يخرج الأفلام السلبية من المغلف ويلامس طرفها بالنار.. وأخذ يشعل كل واحدة، ويتركها تحترق قبل أن يشعل الأخرى.

حين لم تعد المنفضة تحتوي سوى الرماد اللزج الملتصق، وضع ذراعه تحت مرفقها، وشدها نحو الباب.. يصد احتجاج روي وايد بتلويحة من يده:

ـ أجل.. أعرف أنني وزوجتي مذنبان في اقتحام مكان إقامتك وتدمير بعض من ممتلكاتك.. لكنني لا أظن أن هذا يجب أن يقلقك.. بالنسبة لهذه الجزيرة الصغيرة، أستطيع.. وأقول لك، أنت لم تعد مرحباً بك.. وأنصحك بأن تغادرها في أسرع وقت ممكن. كوستي، صديقي منذ الطفولة، اكتشف فجأة أنه يحتاج إلى الغرفة لمستأجر آخر سيصل صباح الغد، وأنا واثق أنك لن تتمكن من إيجاد البديل.. لذا، سأحجز لك غرفة في كيركيرا لهذه الليلة لكن لليلة واحدة فقط.. ولا تتأخر في الرحيل لأكثر من الغد. هذه الجزيرة الصغيرة قد تصبح خطيرة جداً، ولا أرغب في أن تعاني من حادث

مؤسف.

نظرت دولوريس بسرعة إلى وجه زوجها لترى أنه يشبه في تعبيره وجهه يوم جاء إلى شقتها في لندن.. كان يهدد بطريقة لطيفة جداً، بالطبع، لكنه ليس بالتهديد العادي، فهو يعني كل كلمة يقولها..

ـ اذهبي وانتظري في السيارة بينما أكلم كوستي.. وهذا أمر.. جينكامو!

فشهقت:

ـ لكن.. السيارة.. إنها في موقف سيارات الفندق..

ـ سنأتي بها.. الآن افعلي ما أقوله.. اذهبي! فما تبقى هو عمل رجال، ولا دخل للنساء فيه.

بقيت دولوريس صامتة غاضبة لأول ميل من رحلة العودة إلى المنزل، لكنها لم تستطع الاستمرار:

ـ أكنت تعني ما تقول حول الحوادث؟

ـ طبعاً، فهي تحدث.. أقوى السباحين قد يغرق.. والطرقات على هذه الجزيرة يمكن أن تكون مهلكة.. ولقد عنيت ما قلت يا عزيزتي.

انهارت دولوريس إلى الخلف في مقعدها ونظرت إلى ساعتها، لتعلن:

ـ لقد تأخرت.. وسيكون بيتر صارخاً الآن طلباً للطعام. وكل هذا غلطتك. لو أنك تركتني وحدي، دون أن تتدخل، لكنت أنهيت ما جئت لأجله وابتعدت عن التراثيرنا قبل وصول روي. وكان هذا سيوفر علينا كل المتاعب.

ـ وأتركه حراً ليفعل نفس الشيء مجدداً؟ أهذا ما كان في رأسك؟ أن لا أعرف؟

فقالت تعترف له على مضض:

ـ هذا ما كنت آمله.. أوه أرجوك رامون.. إنك تقسو عليها، بالتأكيد، لأنها لم تكن تعرف، وهذا شيء أنا متأكدة تماماً منه.. لقد أرسل لها نسخة من الصورة ليهددها بها. كان يريدها أن تنام معه ورفضته تماماً. إنه لا يدرك كم أنها صغيرة، كما أظن.. الفتيات عادة يضفن بضع سنوات زيادة على أعمارهن عند بلوغ السادسة عشرة، فهن لا يرغبن أن يعتبرهن الناس أطفالاً..

ـ و...؟

ـ ورفضته.. هذا يُظهر أن لديها عقل راجح.. بعد ذلك لا بد أنه كان يلوّح لها بالصور كسيف مسلط على رأسها، فأصبحت حادة المزاج.. ألم تلاحظ؟ كان يجب أن ترى هذا، إنها ابنتك!

ـ ابنة لم تكن لطيفة معك يوم تزوجنا.. يدهشني دفاعك عنها.

وحاولت دولوريس أن تكون منصفة:

ـ حسناً.. لقد كان زواجنا مفاجئاً، وكذلك رأتني أمامها فجأة أبرز من حيث لا تدري لذا لم يكن الأمر سهلاً عليها.. فليس من السهل أن تجد لنفسها أماً جديدة مفروضة عليها شاءت أم أبت.

فسخر منها:

ـ أكان يجب أن نطلب إذناً منها؟ ربما هكذا هي الأمور في انكلترا، لكنني لست إنكليزياً، أنا يوناني، والأمور عندنا تختلف عنها عندكم.

فعبست وقالت منزعجة:

ـ أوه.. أعرف كل هذا.. رأس البيت.. كلمتك هي القانون، لكن كان يجب أن يكون لها رأي، أو أن تُعطى الفرصة لتعرفني قليلاً.

ـ في ذلك الوقت، لم ألحظ أي دليل على ترددك.. كنت تواقة كما كنت أنا.. فلماذا أفكر بكاترينا وأنت لا تفكرين بها؟

فترددت:

ـ لأنني.. حفظت كلمة أحبك مع جملة أنا لا أفكر.. لكن تذكر،

أنا كنت حرة، وليس لدي مشاكل، وليس وراثي من أفكر فيه سوى نفسي، وأعتقد أنني لم أحاول التفكير كما يجب، لكنني هذه المرة أحسست أنا قد نصل إلى شيء.. لم أتوقع أن تحبني، لكنني كنت آمل أن تثق بي.. ولقد أفسدت أنت هذا.. بدسك أنفك حيث لا حاجة لك!

فنظر إليها بسرعة ضاحكاً:

ـ أنت غاضبة فقط لأنني تدخلت وأفسدت عليك نصرك الصغير.. وهجومك على غرفته لإنقاذ ابنتي.. ماذا كنت ستفعلين لو أنه ضبطك، واستخدم ذراعه ضدك؟ أنت كنت مقتحمة لغرفته، تتسببين بأضرار مقصودة لأملاك الرجل.

ـ كنت سأركل له ساقه وأهرب.

وفكرت كم كانت ستركله بقسوة، وابتسمت بسعادة، فهذه لحظة يكون فيها العنف لذيذاً..!

ـ غبية! ما كان لديك أية فرصة.. وتعرفين هذا.. يجب أن تشكريني لا أن تهاجميني.. في الواقع، أنت امرأتي، وما من رجل سيلمسك.

قفز «اللاندروفر» في حفرة، والتف في انحناءة قوية، لذا، ركز على قيادته.. لكن بوصوله إلى طريق مستقيم أكثر سهولة، رفع يده عن المقود ووضعها على ركبتها:

ـ الآن اهدئي «آغابي» إلى أن نصل المنزل.

ـ وهل لدي الإذن أن أقول ما في نفسي حين نصل؟

هز رأسه وضغط على ركبتيها:

ـ لا.. سنتناول الغداء، ثم تطعمين ابننا.. فيما بعد سنكون وحدنا لنقرر بعض الأمور.. علاقتنا الحالية جيدة لكن بالإمكان تحسينها، كلما لمستك تعطيني الانطباع أنني أحاول إفساد طهارة امرأة

شريفة.. علاقتنا هذه ليست كما كانت يوم تزوجنا، لقد كانت تلك الكمال نفسه، وأريد استعادتها.. لذا سأقفل الباب علينا إلى أن نسوي كل شيء بيننا..

ـ قد يستغرق هذا وقتاً.. ربما أسبوع وربما الدهر كله!

ـ كلما طالت كلما كان أفضل! لن نخرج قبل أن أجد المرأة التي تزوجتها.. لا مزيد من الكلام الآن، نحن على وشك أن نصل.

كان على الشرفة لجنة استقبال.. نيكول لا تزال تحمل بيتر على خصرها، كاترينا كانت تقف وراءها، والتقطت دولوريس نظرة الفتاة وهزت لها رأسها. لكنها لم تخفف من تجهمها، مع أنها كانت مسترخية بكآبة بشكل ظاهر.

رفعت أنفها تشم رائحة أحد أطباق ايلفيدا «الموساكا» وسألت نيكول ما إذا كان بيتر يستطيع الانتظار نصف ساعة بعد وذهبت تغسل يديها قبل الغداء.

نزلت يانيس إلى الغداء، مرتدية زياً رائعاً، زادها جمالاً ورقة. قالت لدولوريس:

ـ تبدين مفعمة بالنشاط.. أظنك امرأة بحاجة دائمة إلى الإثارة.. وتجدين المكان هنا مملاً بمرافقة عائلتك وحدها.. لا؟

نظرت إليها دولوريس ببرود من فوق ملعقة مليئة بالطعام:

ـ لا.. لا أجده مملاً.. أتجدينه أنت هكذا؟

سألت هذا لإبقاء الحديث ضمن موضوع الملل.. لا تريد أن يبتعد إلى ما كانت تفعله في «باليوكاستريتسا».. وكانت كاترينا تبدو أفضل حالاً، وأقل توتراً، وهذا ما تريده دولوريس.. لكنها أبقت كرة الحديث في ملعب يانيس، وحين كانت ترمي يانيس الكرة كانت تردها لتصيب بها الهدف كل مرة.

ـ هل تمكنت من تشويه أمر تلك الصورة المثيرة للاشمئزاز

الملتقطة لكاترينا؟

فسبق رامون رد دولوريس مجيباً:

ـ بكل تأكيد! وهذا ما يجب أن يكون يانيس.. نحن والداها أنا ودولوريس فهي في مقام أمها.. وهذا من واجبنا ومدعاة لسرورنا.

اهتز صوت المرأة بالذهول:

ـ وهل كنت تعرف بهذا رامون؟

هز رأسه ورد بصراحة:

ـ لقد أخبرتني كاترينا.. ولحسن الحظ أخبرت دولوريس أولاً.. كي لا يضيع شيء من الوقت.. وكانت زوجتي أكثر من كفء لمثل هذه المشكلة.. وكان لديها الكثير من الشجاعة، ولأكون صريحاً، لم يكن لي حاجة للذهاب إلى هناك أبداً..

وتألقت على وجهه ابتسامة وجهها لزوجته عبر المائدة. وكأنه يمازحها وأحست بدفء الابتسامة، وبالشجاعة كما قال عنها، مع أنها تعرف أنها جبانة.. وتابع:

ـ حين وصلت الترافيرنا.. كان كل شيء قد انتهى.. الشاب، لحسن الحظ لم يكن هناك.

بدا على يانيس أنها تعاني صدمة:

ـ أتعني أنها دخلت غرفة الرجل دون دعوة؟

وكان وجهها قناعاً متصلباً من الاشمئزاز، ولمعت عينا دولوريس غضباً، ورمت الملعقة في الطبق تنظر بغضب إليها، تسأل بسخرية:

ـ وما الذي أزعجك إلى هذا الحد؟ هل لأنني دخلت دون دعوة أم لأنني ذهبت إلى هناك أساساً؟ شخص ما كان يجب أن يفعل شيئاً.

قاطعتها يانيس بلؤم:

ـ كان يجب على كاترينا أن تعترف لأبيها.. وعلى الفور.

غلى الغضب في داخل دولوريس حتى أصبح لا يطاق:

ـ لا شيء لدى كاترينا لتعترف به! إلا إذا كان رامون يعترض على سباحتها في وقت مبكر حين يكون الشاطىء مهجوراً..

كان ليانيس ميزة.. إنها لا تفقد أعصابها، وبدأت بتعقل تقول:

ـ في رأيي..

قاطعتها دولوريس بشراسة:

ـ لا أهتم أبداً برأيك! لقد فعلت ما ظننته الأفضل ونجحت. مع أنني خفت قليلاً حين دخل روي وايد فجأة.

ـ أتعنين أنك كنت لوحدك معه في غرفته؟

وضحكت دولوريس في وجه كاترينا وهي ترد على يانيس:

ـ ولا لحظة فقد كان والدك قد وصل، ووفر لي الحماية لأخرج.

لكن يانيس لم تكن تنوي ترك المسألة:

ـ لكن ما فعلته..

فأوقفتها دولوريس قبل أن تكمل:

ـ ما فعلته فعلته بأفضل الدوافع.. ربما لم يكن ما فعلته مثالياً لكنني لا أهتم أبداً.. كنت أحاول جهدي أن أحمي كاترينا، ويجب عليك أن تعترفي أن نشر صورتها في مجلة للرجال في كل أنحاء العالم..

فاشتد عبوس يانيس لكن دولوريس أكملت بحزم:

ـ أجل.. هذا ما كان سيحدث لو لم أتدخل.. مما شاهدته، لا شك أن روي وايد يبيع الصور للذي يدفع أكثر..

ولم تتوقف يانيس:

ـ كان بإمكانك استشارة رامون أولاً..

ـ لكنني لم أستشره.. ولم يكن هنا.. وكل ما كنت تفعلينه أنت يانيس، هو الصياح في كاترينا وكأنها مخطئة في وقت لم تكن فيه مخطئة.

ـ لم يكن لدي سوى كلمتك لهذا.

ـ ليس كلمتي فقط، بل كلمة كاترينا أيضاً.. لكنك لم تصدقي أقوالنا، صحيح؟ لا أهتم لهذا، لا أستطيع فهمك، كاترينا قريبة لك، مع ذلك أنت راغبة بالتفكير بالأسوأ لها.. كل هذا لم يعد مهماً الآن.. لقد انتهى الأمر، لا شيء تقولينه سيغير شيئاً مما حدث، إن كان خطأ أو صواباً، لقد قمت به، ولست أخجل إطلاقاً.. الجميع يبدو سعيداً، وحدك تنتقدين وتتذمرين، ولست أدري لماذا؟

استلم رامون الكلام عنها، وكانت شاكرة له:

ـ وجهة نظر جيدة.. لماذا يانيس؟ ربما ستشرحين لنا السبب.

وأخذت يانيس نفساً عميقاً.

ـ بكل تأكيد.. سأفعل.. إذا اعتقدت أن هذا ضروري.. لكنني قلت لك من قبل إذا كنت تذكر.. لا شيء لدي ضد دولوريس ما عدا أن طريقتها لا تتناسب مع طرقنا..

قاطعتها دولوريس:

ـ ولن تتناسب أبداً..

ودفعت كرسيها إلى الوراء ووقفت بسرعة.. وعضت على لسانها لتمنع الكلمات الغاضبة من الخروج واعتذرت بدبلوماسية:

ـ يجب أن أذهب لأرى بيتر..

وتركت شفتيها تنفرجان عن ابتسامة عطف وشفقة، وخرجت، لكن رامون لحق بها بسرعة.. فما إن أغلقت الباب خلفها حتى كان يفتحه ويدخل.

لم تكن نيكول قد أعادت الصبي بعد، هكذا كانا وحدهما في الغرفة، فاستدارت إليه تواجهه، وقد تصلبت قسمات وجهها بالغضب وجمدت عيناها بسخط شديد:

ـ إياك أن تجرؤ على انتقاد تصرفي! أعتقد أن تصرفي رائع حسب

مقاييسي، والتي أعترف أنها ليست مقاييسك.

وتحول عبوس رامون إلى ابتسامة:

ـ أجل.. كان تصرفك رائعاً جينكامو.. لكنك خيبت أملي وأمل كاترينا، كنا ننتظر منك ثورة نتنعم بها.. امرأة كانت على استعداد لمواجهة روي وايد وحدها، توقعنا منها شيئاً أفضل من تمتمة عذر والهرب بعده.. وأرجو أن لا يستمر هذا الهرب إلى المطار ثم لندن.

ـ وأترك ابني لتربية يانيس أليس كذلك؟ لا، وحق حياتك الغالية. ثم إنك هل تريد حسم المسألة والمصارحة؟

ـ ألا تظنين أننا بحاجة إليها دولوريس.. إذا كان لنا أن ننجح في حياتنا الزوجية؟ ولدي سؤال آخر لك، هل أن رفضي السماح لك بأخذ بيتر معك هو السبب الوحيد لبقائك هنا؟

فتمتمت وهي تدير ظهرها له ليديرها مجدداً إليه:

ـ ليس.. تماماً..

كانت موجة الغضب قد تلاشت عن وجهها، ولم تعد عيناها جامدتين بل مشعتين رماديتين صافيتين.. رفعتهما إلى وجهه، لتبحث عن شيء.. عن إشارة ولو صغيرة تقول لها كيف تكمل حديثها.. لكنها لم تر شيئاً.. مجرد انتظار هادىء من رامون لسماع الحقيقة.. كانت عيناه شديدتي السواد وأحست أنها ستغرق فيهما، ولكنها بشهقة مكتومة، انتزعت عينيها من أسر عينيه. عاد فقال:

ـ أنا بالانتظار.

ـ أعرف.

كانت تحس أن فمها جاف، ولسانها كبير جداً يلتصق في داخله. وابتلعت ريقها وبللت شفتيها وفكرت.. إذا كان ما ستقوله ليس مناسباً بإمكانها افتعال ضحكة عفوية وتقول له إنها تمزح:

ـ أنا.. لا زلت.. أحبك. وهذه سخافة مني. والأسخف أن

ريما www.liilas.com

أعترف بهذا، فهذا سيعطيك أفضلية كبيرة إذا فهمت ما أعني.. أنا امرأة.. وأنت رجل جذاب، وزوجي، فمن المعقول إذن أن أريدك.. ظننت نفسي لم أعد أحبك، لكن هذا غير صحيح.. ولم أكن أريدك أن تعرف هذا.

بلطف مد يديه ليمسك يديها:

ريما www.liilas.com

- لكن هذا كل ما أحتاج أن أعرفه..

وبلطف جعلت يداه تجذبانها إلى حيث أصبحت تسمع تحت خدها دقات قلبه الثابتة. وقال وفمه في شعرها:

- آغابي مو.. كنت ظالماً لك.. أليس كذلك؟ لكن يجب أن تفهمي.. تزوجتك فتاة غير مجربة وأصغر مني بكثير.. وكنت أعرف ما أفعل، لكن بعد فترة بدأت أسأل نفسي ما إذا كنت أنت تعرفين ما تفعلين.. بدأت أقلق، وانتظرت أن تبدأي التفكير ثانية.. وبدا لي أن هذا ما توقعت أن يحدث حين هربت، وفكرت أن أعطيك بعض الوقت.. ولم أرغب في صلح مليء بالدموع لن يدوم.. أردت بداية جديدة.

رفعت رأسها تنظر إليه ساخرة:

- مبنية على التهديد؟ إنها أساس جيد لعلاقة!

- كانت الطريقة الوحيدة أمامي.. كنت أعرف أنك لن تفترقي عن الطفل.. وبدت لي فرصة مناسبة للبدء من جديد.. أفضل بكثير من الحوار المتعقل معك.. ولم أجبرك على أي شيء آخر.. أتذكرين؟ ما جرى بيننا منذ عودتك كان بمحض إرادتك... بعدها ماذا وجدت؟ لم أجد أنك ضجرة، وأنك ترين الحياة معنا مملة لكن سبب نفورك أنك كنت تغارين وتشكين.

فسألت بشراسة:

- ولماذا لا أكون؟ ومن قال لك كل هذا؟.. يانيس؟

- لا يا زوجتي السخيفة، ليس يانيس.. بل أنت، حين اتهمتني بعلاقة حب، وقلت إنك رأيتني.. أتذكرين؟

فمالت إلى الوراء على ذراعيه لتنظر إلى وجهه:

- لقد رأيتك! في الحديقة.. أنت ويانيس.. فإذا كنت مخطئة لماذا لم تقل لي؟

فهز كتفيه:

- مع الوقت دولوريس سيكون تفكيرنا متماثلاً.. لكننا لم نصل هذه المرحلة بعد.. كنت غاضباً لقلة ثقتك بي، ولأنك أدنتني على أساس ضعيف.. لكنني لم أكن قد فكرت بجهلك لطرق معيشتنا.. فلو كان لي عشيقة، فلن تعيش إطلاقاً تحت سقف بيتي مع ابنتي.. كنت اشتريت لها، أو بنيت، منزلاً صغيراً. وعلى مسافة مناسبة مني.. لكن أن تفكري بهذا، وتتهميني، أعطاني الأمل بالمستقبل.. كان يمكن أن يكون هذا نوعاً من التملك، لكنك لست متملكة يا حبيبتي.

- كنتما تتبادلان القبل. ثم فكرت.

على أي حال، من الأفضل أن يظن أن الغيرة تأكلها من أن تغوص كاترينا في المتاعب مرة أخرى.

وأعادها إليه رامون ضاحكاً:

- لقد خمنت هذا.. لقد كان الظلام شديداً في تلك الليلة أكثر من أن تري بوضوح من يقبل من.. هل ستبقين هنا هذه المرة أم لا زلت تريدين الخلاص؟ سنرتب بيتنا، ولن يكون فيه سوى أنت وأنا، كاترينا وبيتر.. يانيس ستعود إلى أثينا.. أنا شاكر لما قامت به حتى الآن، لكن حان الوقت لأن نعيش حياتنا الخاصة.. سأجد لها زوجاً، أو الأفضل من هذا، بما أنها ثرية بما يكفي للاختيار.. سنختار لها معاً..

مسكينة يانيس! لأول مرة أحست دولوريس بالشفقة على المرأة التي أحبت زوجها جداً ودون كلمة.. حتى أنه لم يلاحظ حبها له! ثم

رفعت نظرها إلى وجهه، واعتبرت نفسها بلهاء.. بالطبع لاحظ رامون هذا.. لكنها الآن واثقة أنه لم يستغل الأمر.

وقالت بلطف:

ـ دعني خارج المسألة! لدي ما يكفي.

ووافق:

ـ أجل.. هذا صحيح.. ولسوف يكون لديك الكثير لتقومي به.. فأنت تميلين إلى تخيل أشياء وأنت دون عمل.

ـ وكيف ستفعل هذا؟

لم يرد عليها فوراً، بل أصغى إلى صوت حذاء نيكول الكبير وهي تقترب من الغرفة، وقال بصوت هامس:

ـ سأحبك.. وسأبقيك دائماً مشغولة بطفل على صدرك وآخر متعلق بثوبك..

شهقت دولوريس ضاحكة وهي تقاوم لتفلت من ذراعيه، وذهبت لتأخذ ابنها من نيكول، وهي ترمي الكلمات من فوق كتفها:

ـ يبدو لي هذا حكماً بالسجن المؤبد.

ابتسم لنيكول، وهز رأسه يصرفها:

ـ هل الأمر سيء إلى هذا الحد؟ هل ستكرهين الأمر كثيراً؟ نحن اليونانيين مولعون بالأولاد كثيراً.

ـ وأنا كذلك، لكن ضمن المعقول.. بالطبع إذا كانوا كهذا.. لن أمانع أبداً.. لكن، متى سنملك الوقت لأنفسنا؟

فلف ذراعه عليهما معاً وشدهما إليه:

ـ سيكونون أطفالاً رائعين.. سعداء مكتفين.. ومعهم سنتشارك أيامنا.. لكن الليالي.. ستكون لنا وحدنا!

* * *

ريما www.liilas.com